ثلاث رسائل للسعدي

الرسالة الأولى

سؤال وجواب في أهم المهمات

الرسالة الثانية

مختصر في أصول العقائد الدينية

الرسالة الثالثة

أصول عظيمة من قواعد الإسلام

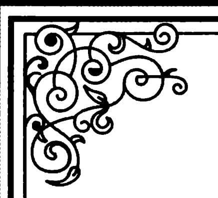
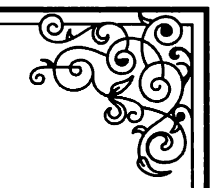
تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ)



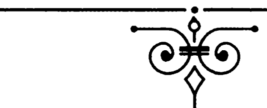



ثلاث رسائل للسعدي

الرسالة الأولى
سؤال وجواب في أهم المهمات

الرسالة الثانية
مختصر في أصول العقائد الدينية

الرسالة الثالثة
أصول عظيمة من قواعد الإسلام

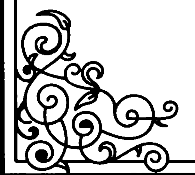


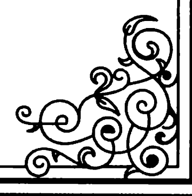
تأليف

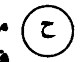
فضيلة الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ)




مدار الوطن للنشر، ١٤٣٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر
ثلاث رسائل للسعدي: ١ - سؤال وجواب في اهم المهمات ٢ - مختصر في أصول العقائد الدينية ٣ - أصول عظيمة من قواعد الإسلام.
/عبد الرحمن بن ناصر السعدي - الرياض، ١٤٣٨هـ
٨٠ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٢ - ٦٢ - ٨١٧١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- العقيدة الإسلامية — مجموعات ٢ - القواعد الفقهية أ - العنوان
ديوي: ٢٤٠,٨ ١٤٣٨/١٨١٩

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٨١٩
ردمك: ٢-٦٢-٨١٧١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م



المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٢
المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨
ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣ خطوط) - ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦
فرع مخرج ١٥ ت: ١١٤٤٥٤١٢٤ جوال: ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
K.S.A / Riyadh11312 P.O.Box: 245760
Rawdah / Tel.:112313018 Fax:112322096
Exit15 -Tel.114454124 Mob. 0506436804
الموقع الإلكتروني www.madaralwatan.com
البريد الإلكتروني pop@madaralwatan.com
madaralwatan@hotmail.com
madaralwatan2020@gmail.com



الرسالة الأولى

سؤال وجواب

في أهم المهمات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما له من الأسماءِ الحسنى والصفات الكاملةِ والنعم السابغة، وأصلي على محمدٍ المبعوثِ لصلاح الدين والدنيا والآخرةِ.

أما بعدُ:

فهذه رسالةٌ مختصرة احتوت على أهمِّ المهمَّات من أمور الدينِ وأصول الإيمانِ، تدعو الحاجةُ والضرورة إلى معرفتها، جعلتُها على وجه السؤالِ والجوابِ؛ لأنه أقربُ إلى الفَهمِ والتفهيم وأوضحُ في التعلم والتعليم.

السُّؤالُ الأولُ: ما حدُّ التوحيدِ؟ وما أقسامُه؟

الجَوابُ: حدُّ التوحيدِ الجامعِ لكل أنواعه هو: علمُ العبد واعتقادُه واعترافه وإيمانه بتفردِ الربِّ بكل صفة كمالٍ، وتوحده في ذلك، واعتقادُ أنه لا شريكَ له ولا مثيل له في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقِه أجمعين، ثم إفرادُه بأنواعِ العبادة، فدخل في هذا التعريفِ أقسامُ التوحيد الثلاثةُ.

أحدها: توحيدُ الربوبية، وهو الاعتراف بانفرادِ الربِّ بالخلق والرزق والتدبير والتربيةِ.

الثاني: توحيدُ الأسماءِ والصفات، وهو إثبات جميعِ ما أثبته الله لنفسِه، أو أثبته له رسولُه محمد ﷺ، من الأسماءِ الحسنى وما دلَّت عليه من الصفاتِ، من غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ.

الثالث: توحيدُ العبادةِ، وهو إفرادُ الله وحده بأجناسِ العبادات وأنواعها، وإفرادها، وإخلاصِها لله من غير إشراكٍ به في شيءٍ منها.

فهذه أقسامُ التوحيدِ التي لا يكون العبدُ موحدًا حتى يلتزم بها كلِّها ويقوم بها.

السُّؤالُ الثاني: ما هو الإيمانُ والإسلام وأصولُهما الكلية؟

الجَوابُ: الإيمان هو التصديقُ الجازم بجميع ما أمَرَ الله ورسولُه بالتصديق به المتضمنُ للعمل الذي هو الإسلام، وهو الاستسلامُ لله وحده والانقيادُ لطاعته.

وأما أصولهما فهي ما احتوت عليه هذه الآيةُ الكريمة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، وما فسَّرهُ به النبيُّ ﷺ في حديث جبريلَ وغيره حيث قال: «**الإيمانُ: أن تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكتبه ورسلِه واليومِ الآخر والقَدَرِ خيرِه وشره، والإسلامُ: أن تَشهدَ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، وتُقيمَ الصلاةَ، وتؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحجَّ البيتَ**»[1]، ففسر الإيمان بعقائِدِ القلوب، وفسرَ الإسلامَ بالقيامِ بالشرائعِ الظاهرةِ.

السُّؤالُ الثالث: ما هي أركانُ الإيمانِ بأسماءِ الله وصفاته؟

الجَوابُ: هي ثلاثةٌ: إيمانٌ بالأسماء الحسنى كلِّها.

وإيمانٌ بما دلَّت عليه من الصفاتِ.

وإيمانٌ بأحكامِ صفاته ومتعلقاتِه.

---

(١) حديث جبريل أخرجه بتمامه مسلم في صحيحه رقم (٨) من حديث ابن عمر عن أبيه. وأخرج البخاري بعضه رقم (٥٠) من حديث أبي هريرة.

فنُؤمنُ بأنه عليمٌ له العِلمُ الكاملُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ، وأنه قديرٌ ذو قدرةٍ عظيمةٍ يَقدِرُ بها على كلِّ شيءٍ، وأنه رحيمٌ وحسنٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ يرحمُ بها من يشاءُ. وهكذا بقيةُ الأسماءِ الحسنى والصفاتِ ومتعلقاتِها.

السُّؤالُ الرابعُ: ما قولُكُم في مسألةِ علوِّ الله على الخلقِ واستوائِه على العرشِ؟

الجَوابُ: نعرفُ ربَّنا بأنه عليٌّ أعلى، بكل معنًى واعتبارٍ؛ عُلوُّ الذاتِ، وعلو القدرِ والصفات، وعلو القهرِ وأنه بائنٌ من خلقِه، مستوٍ على عرشه؛ كما وَصَفَ لنا نفسَه بذلك.

والاستواءُ معلومٌ والكيف مجهولٌ، فقد أخبرنا أنه استوى، ولم يُخبِرنا عن الكيفيةِ.

وكذلك نقولُ في جميع صفاتِ الباري: إنه أخبَرنا بها، ولم يُخبِرنا عن كيفِيَّتها، فعلينا أن نؤمِنَ بكلِّ ما أخبرنا في كتابِه وعلى لِسانِ رَسولِه ﷺ، ولا نزيدُ على ذلك ولا ننقُصُ منه.

السُّؤالُ الخامسُ: ما قولُكُم في الرحمةِ والنُّزولِ إلى السماءِ الدنيا، ونحوها؟

الجَوابُ: نؤمنُ ونقرُّ بكل ما وَصَفَ الله به نفسَه من الرحمة والرضا والنزولِ والمجيء، وبما وصفَهُ به الرسولُ ﷺ على وجه لا يُماثِله فيه أحدٌ من خلقِه، فإنه ليس كمثله شيءٌ؛ فكما أن لله ذاتًا لا تُشبِهها الذواتُ فله تعالى صفاتٌ لا تشبهها الصفاتُ، وبرهانُ ذلك ما ثبت من التفصيلاتِ العَظيمةِ في الكتاب والسنة في إثباتِها والثناءِ على الله بها، وما وَردَ على وجه العُمومِ في تنزيهه عن المِثْلِ والندِّ والكفوِ والشريكِ.

السُّؤالُ السادسُ: ما قولُكُم في كَلامِ اللهِ في القرآنِ؟

الجَوابُ: نقولُ: القرآنُ كَلامُ الله منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بَدأَ وإليه يَعودُ[1]، والله المتكلمُ به حقًّا، لفظِه ومعانيه، ولم يزل ولا يَزالُ متكلمًا بما شاءَ إذا شاءَ، وكلامُه لا ينفَد ولا له مُنتهًى.

السُّؤالُ السابعُ: ما هو الإيمانُ المطلقُ؟ وهل يَزيدُ وينقُصُ؟

الجَوابُ: الإيمانُ؛ اسمٌ جامع لعقائد القلب وأعمالِه وأعمالِ الجوارح وأقوالِ اللسان، فجميعُ الدِّين أصولِه وفروعِه داخلٌ في الإيمان ويترتب على ذلك أنه يَزيدُ بقوة الاعتقادِ وكثرته، وحُسنِ الأعمال والأقوالِ وكثرتها، وينقُص بضد ذلك.

السُّؤالُ الثامنُ: ما حُكمُ الفاسقِ المِلِّيِّ؟

الجَوابُ: من كان مؤمنًا موحدًا وهو مصرٌّ على المعاصي فهو مؤمنٌ بما معه من الإيمانِ، فاسقٌ بما تركه من واجباتِ الإيمان، ناقص الإيمان مستحقٌّ للوعدِ بإيمانه وللوعيدِ بمعاصيه، ومع ذلك لا يخلدُ في النار؛ فالإيمان المطلقُ التامُّ يمنع من دخولِ النار، والإيمانُ الناقصُ يمنع من الخلودِ فيها.

السُّؤالُ التاسعُ: كم مراتِبُ المؤمنين؟ وما هي؟

الجَوابُ: المؤمنون ثَلاثةُ أقسامٍ:

سابقون إلى الخيراتِ؛ وهم الذين قاموا بالواجباتِ والمستحبات، وتَركوا المحرماتِ والمكروهات.

---

(١) معنى قول السلف: منه بدأ وإليه يعود، يعني أن الله تكلم به وليس مخلوقًا من غيره أو خرج من غيره، وإليه يعود يوم القيامة في آخر الزمان، حيث يرفع في آخر الزمان بعد أن يترك الناس العمل به وهذا من أشراط الساعة.

ومقتَصِدون؛ وهم الذين اقتَصروا على أداء الواجِبات واجتنابِ المحرماتِ.

وظالمون لأنفُسِهم؛ وهم الذين خَلطوا عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا.

السُّؤالُ العاشرُ: ما حُكمُ أفعالِ العبادِ؟

الجَوابُ: أفعالُ العبادِ كلُّها من الطاعات والمعاصي داخلةٌ في خَلقِ الله وقضائه وقَدرِه، ولكنهم هم الفاعِلون لها لم يجبرهم الله عليها مع أنها واقعةٌ بمشيئتهم وقُدرتِهم، فهي فعلهم حقيقةً، وهم الموصوفون بها المثابون والمعاقَبون عليها، وهي خلق الله حقيقةً؛ فإن الله خلقهم وخلق مشيئَتهم وقدرَتهم وجميعَ ما يقع بذلك، فنؤمنُ بجميعِ نصوصِ الكتاب والسنة، الدالةِ على شمولِ خلق الله وقدرتِه لكلِّ شيءٍ من الأعيانِ والأوصافِ والأفعال، كما نؤمنُ بنصوصِ الكتاب والسنة الدالةِ على أن العبادَ هم الفاعِلون حقيقةً للخيرِ والشرِّ، وأنهم مُختارون لأفعالهم، فإن الله خالقُ قُدرتِهم وإرادَتِهم، وهما السببُ في وجودِ أفعالِهم وأقوالهم، وخالِقُ السبب التامِّ خالقٌ للمسبب، والله أعظمُ وأعدل من أن يجبرهم عليها.

السُّؤالُ الحادي عَشَرَ: ما هو الشِّركُ؟ وما أقسامُه؟

الجَوابُ: الشرك نوعان: شركٌ في الربوبيةِ، وهو أن يعتقدَ العبد أن لله شريكًا في خلقِ بعض المخلوقات أو تَدبيرِها.

النوعُ الثاني: الشرك في العبادةِ، وهو قسمان: شركٌ أكبر، وشرك أصغرُ؛ فالشرك الأكبرُ أن يصرفَ العبد نوعًا من أنواع العبادةِ لغير الله؛ كأن يدعو غيرَ الله، أو يرجوه، أو يخافَه، فهذا مُخرجٌ من الدين، وصاحبُه مخلد في النار.

وأما الشركُ الأصغرُ فالوسائل والطرقُ المفضية إلى الشركِ إذا لم تبلغ رتبةَ العبادة كالحلفِ بغير الله والرياءِ ونحو ذلك.

السُّؤالُ الثاني عشرَ: ما صفةُ الإيمان بالله على وجه التَّفصيلِ؟

الجَوابُ: إننا نُقرُّ ونعترف بقُلوبنا وألسنَتِنا أن الله واجبُ الوجودِ، واحد أحدٌ فرد صَمدٌ، متفردٌ بكل صفة كمالٍ ومجدٍ وعظمة وكبرياء وجلالٍ، وأن له غايةَ الكمالِ الذي لا يقدر الخلائقُ أن يحيطوا بشيءٍ من صفاتِه، وأنه الأول الذي ليس قبلَه شيءٌ، والآخِر الذي ليس بعده شيء، والظاهرُ الذي ليس فوقَه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيءٌ، وأنه العلي الأعلى؛ علو الذاتِ وعلو القدرِ، وعلو القهرِ، وأنه العليمُ بكل شيءٍ، القديرُ على كل شيء، السميع لجميع الأصواتِ، باختلاف اللغات، على تفنُّنِ الحاجات، البصيرُ بكل شيءٍ، الحكيم في خلقه وشرعِه، الحميد في أوصافِه وأفعاله، المجيدُ في عظمته وكبريائِه، الرحمن الرحيم الذي وسِعَت رحمتُه كل شيءٍ، وعم بجوده وبِرِّه ومواهبه كلَّ موجودٍ، المالك الملك لجميعِ الممالك، فله تعالى صفةُ الملك، والعالم العلوي والسفلي كلُّهم مماليكُ وعبيدٌ لله، وله التصرف المطلقُ، وهو الحي الذي له الحياة الكاملةُ المتضمنة لجميعِ أوصافه الذاتية، القيوم الذي قام بنفسه وبغيرِه وهو متصف لجميع صفات الأفعال، فهو الفعالُ لما يريدُ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ونشهد أنه ربُّنا الخالق البارئ المصورُ الذي أوجد الكائنات، وأتقنَ صنعها، وأحسنَ نظامَها، وأنه الله الذي لا إله إلا هو الإله المعبودُ الذي لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه، فلا نخضعُ ولا نذل ولا نُنيبُ ولا نتوجه إلا لله الواحدِ القهارِ، العزيز الغفارِ، فإياه نعبد، وإياه نستعين، وله نرجو ونخشى؛ نرجو رحمتَه، ونخشى عدلَه وعذابَه، لا ربَّ لنا غيره فنسأله وندعوه، ولا إله لنا سواه نؤمِّلُه ونرجوه، هو مولانا في إصلاحِ ديننا ودنيانا، وهو نِعمَ النصير، الدافعُ عنا جميعَ السوءِ والمكاره.

السُّؤالُ الثالثَ عشرَ: ما صفةُ الإيمان بالأنبياءِ على وجه التفصيلِ؟

الجَوابُ: علينا أن نؤمنَ بجميعِ الأنبياء والرسل الذين ثبتَت نبوَّتُهم ورسالتهم على وجه الإجمالِ والتفصيلِ، ونعتقدَ أن الله تعالى اختصَّهم بوحيِهِ وإرساله، وجعلَهم وسائطَ بينه وبين خلقه في تبليغ دينه وشرعه، وأيدهم بالآيات الدالةِ على صدقِهم وصحةِ ما جاؤوا به، وأنهم أكملُ الخلق علمًا وعملًا، وأصدقُهم وأبرهم وأكملهم أخلاقًا وأعمالًا، وأن الله خصَّهم بفضائلَ لا يلحقُهم فيها أحدٌ، وبرأهم من كل خُلقٍ رذيلٍ، وأنهم معصومون في كل ما يُبلِّغونه عن الله، وأنه لا يستقرُّ في خبرهم وتبليغهم إلا الحقُّ والصواب، وأنه يجب الإيمان بهم كلِّهم، وبكل ما أوتوه من الله، ومحبتهم وتوقيرهم وتعظيمهم.

ونؤمنُ أن هذه الأمورَ واجبةٌ علينا لنبينا محمدٍ ﷺ على أكمل الوجوه وأعلاها، وأنه يجب معرفتُه ومعرفة ما جاء به من الشرعِ جملةً وتفصيلًا، بحسب الاستطاعةِ، والإيمان بذلك والتزامه والتزامُ طاعته في كل شيءٍ بتصديقِ خبره وامتثالِ أمره واجتناب نهيه، وأنه خاتمُ النبيين، لا نبيَّ بعده، قد نَسَخت شريعتُه جميعَ الشرائع، وهي باقيةٌ إلى قيام الساعة، ولا يتم الإيمان به حتى يعلم العبدُ أن جميع ما جاء به حقٌّ، وأنه يَستحيل أن يقومَ دليلٌ عقلي وحسي أو غيرهما على خلافِ ما جاء به. بل العقلُ الصحيح والأمور الحسية الواقعةُ تشهد للرسولِ بالصدق والحقِّ.

السُّؤالُ الرابعَ عشرَ: كم مراتِبُ الإيمان بالقضاءِ والقَدرِ؟ وما هي؟

الجَوابُ: مراتبُ ذلك أربعةٌ لا يتم الإيمانُ بالقَدرِ إلا بتكميلِها[1]:

---

(١) وهي على سبيل الاختصار: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق.

الإيمان بأن الله بكلِّ شيءٍ عليم، وأن علمه محيطٌ بالحوادثِ، دقيقِها وجليلها.

وأنه كتب ذلك باللوحِ المحفوظِ.

وأن جَميعها واقعةٌ بمشيئته وقدرتِه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأنه مع ذلك مَكَّن العبادَ من أفعالهم فيفعلونها اختيارًا منهم بمشيئَتِهم وقدرتِهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

السُّؤالُ الخامسَ عشرَ: ما حد الإيمان باليوم الآخر؟ وما الذي يدخل فيه؟

الجَوابُ: كل ما جاء في الكتاب والسنة مما يكون بعد الموتِ فإنه داخلٌ في الإيمان باليومِ الآخر؛ كأحوالِ القبر والبرزخِ ونعيمه وعذابِه، وأحوالِ يوم القيامة وما فيها من الحسابِ، والثواب والعقابِ، والصحف والميزان، والشفاعةِ، وأحوال الجنة والنارِ، وصفاتها وصفاتِ أهلها، وما أعدَّ الله فيهما لأهلِهما إجمالًا وتفصيلًا، كل ذلك من الإيمانِ باليوم الآخر.

السُّؤالُ السادسَ عشرَ: ما هو النِّفاقُ وأقسامُه وصفته؟

الجَوابُ: حدُّ النفاق: إظهارُ الخيرِ وإبطانُ الشرِّ: وهو قسمان:

نفاقٌ أكبرُ: اعتقاديٌّ مخلَّد صاحبُه في النار، وذلك مثل ما أخبرَ الله به عن المنافقين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨]، من المبطِنين للكفر، المظهرين للإسلامِ.

ونفاقٌ أصغر: مثل ما ذكرهُ النبيُّ ﷺ في قوله: «**آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وَعدَ أخلَف، وإذا اؤتمِنَ خانَ**»(١)، فالكفرُ الأكبر والنفاقُ الأكبر لا ينفعُ معه إيمان ولا عمل، وأما الأصغرُ منهما فقد يجتمعُ مع الإيمان فيكون في العبدِ خير وشر، وأسبابُ ثواب، وأسباب عِقابٍ.

السُّؤالُ السابعَ عشرَ: ما هي البدعةُ؟ وما أقسامُها؟

الجَوابُ: البدعةُ هي خلافُ السنة: وهي نوعان:

بدعةُ اعتقادٍ: وهي اعتقاد خلافِ ما أخبر الله به ورسولُه، وهي المذكورةُ في قوله ﷺ: «**وستَفتَرِقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلُّها في النار إلا واحدةً**». قالوا: ما هي يا رسولَ الله؟ قال: «**من كان على مِثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصحابي**»(٢)، فمن كان على هذا الوصفِ فهو صاحب سنةٍ محضةٍ، ومن كان من بقية الفرقِ فهو مبتدعٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ، وتتفاوت البدعُ بحسب بُعدِها عن السنةِ.

والنوع الثاني بدعةٌ عملية: وهي التعبدُ بغير ما شرعَ الله ورسولُه، أو تحريمُ ما أحل الله ورسوله. فمن تعبد بغير الشرعِ أو حرم ما لم يحرمه الشارعُ فهو مبتدعٌ.

السُّؤالُ الثامنَ عشرَ: ما حقوقُ المسلمين عليك؟

الجَوابُ: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فالواجبُ أن تتخذَهم إخوانًا تحب لهم ما تحبُّ لنفسك، وتكره لهم ما تكرهُ لنفسك، وتسعى بحسبِ مقدورِك في مصالحهم، وإصلاحِ ذات بينهم، وتأليفِ قلوبِهم واجتماعِهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥). ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

على الحقِّ، المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمُهُ ولا يخذلُه ولا يكذبُه ولا يحقرُه، وتقوم بحق من له حق خاصٌّ كالوالدين والأقارب والجيرانِ والأصحاب والمعاملين.

السُّؤالُ التاسعَ عشرَ: ما الواجبُ نحو أصحابِ النبيِّ ﷺ؟

الجَوابُ: من تمامِ الإيمان برسولِ الله ﷺ ومحبتِه محبةُ أصحابه بحسب مراتِبهم من الفضلِ والسبق، والاعتراف بفضائِلهم التي فاقوا فيها جميعَ الأمة، وأن تَدين الله بحبهم ونشرِ فضائلهم، وتمسك عما شَجرَ بينهم، وتعتقدَ أنهم أولى الأمة بكلِّ خصلةٍ حميدةٍ، وأسبقهم إلى كل خيرٍ، وأبعدهم من كل شرٍّ، وأنهم جميعهم عدولٌ مَرضِيُّون.

السُّؤالُ العشرون: ما قولُكُم في الإمامةِ؟

الجَوابُ: نعتقدُ أن نصب الإمامِ فرض كفايةٍ، فإن الأمة لا تستغني عن إمامٍ يقيم لها دينها ودنياها، ويدفعُ عنها عاديةَ المعتدين، وإقامة الحدود على الجناةِ، ولا تتم إمامتُه إلا بطاعته في المعروفِ في غير معصيةٍ، والجهادُ ماضٍ مع البرِّ والفاجر، ويعانون على الخيرِ، وينصحون عن الشرِّ.

السُّؤالُ الحادي والعشرون: ما هو الصراطُ المستقيمُ؟ وما صفته؟

الجَوابُ: الصراطُ المستقيم هو العلمُ النافعُ، والعمل الصالح.

والعلمُ النافع: هو ما جاءَ به الرسول من الكتابِ والسنةِ.

والعمل الصالح: هو التقربُ إلى الله بالاعتقادات الصحيحةِ، وأداء الفرائض والنوافل، واجتناب المنهيات، وهو القيامُ بحقوق الله وحقوقِ عباده، ولا يتم ذلك إلا بالإخلاصِ التامِّ لله، والمتابعة لرسولِ الله ﷺ.

والدين يدور على هذين الأصلين، فمن فاته الإخلاصُ وقع في الشركِ، ومن فاته المتابعة وقع في البِدعِ.

السُّؤالُ الثاني والعشرون: ما هي الأوصافُ التي يتميز بها المؤمن عن الكافِرِ والجاحِدِ؟

الجَوابُ: هذا سؤالٌ عظيمٌ؛ بالفرقِ بين المؤمن وغيره يتميزُ الحق والباطل، وأهل السعادةِ من أهلِ الشقاوة، فاعلم أن المؤمن حقًّا هو الذي آمن بالله وبأسمائِه وصفاتِه الواردة في الكتابِ والسنةِ على وجه الفهم لها والاعترافِ بها، وتنزيهه عما ينافي ذلك؛ فامتلأ قلبُه إيمانًا وعلمًا، ويقينًا وطمأنينةً وتعلقًا بالله، فأناب إلى الله وحده، وتعبد لله بالعباداتِ التي شرعَها على لسان نبيه ﷺ، مخلصًا لله بها، راجيًا لثوابه، خائفًا من عقابه، شاكرًا لله بقلبه ولسانه وجوارِحِه على نعم الله وإحسانه العظيمِ، الذي يتقلب به في جميع الساعات لاهجًا بذكره، لا يَرى نعمةً أعظم من هذه النعمة، ولا كرامة أعظم منها.

يهزَأُ بلذات الدنيا المادية إذا نُسبت إلى لذة الإنابةِ إلى الله، والإقبالِ عليه وحده، ومع هذا فقد أخذَ نصيبًا وافرًا من لذات الحياةِ، وتمتع بها، لا على الوجهِ الذي يتمتع به الجاحدون أو الغافلون، بل تمتَّعَ بها على وجه الاستعانة بها على القيامِ بحقوق الله وحقوقِ عباده. وبذلك الاحتسابِ والرجاء تمت بها لَذاتُه، واستراحَ قلبه واطمأن، ولم يحزن إذا جاءته الأمورُ على خلاف ما يحب، فهذا قد جمع الله له بين سعادةِ الدنيا والآخرةِ.

أما الجاحدُ والغافل فهو على خلافِ ذلك؛ فقد جحد ربَّه العظيمَ، الذي قامت البراهين العقلية والنقليةُ والعلومُ الضرورية والحسيةُ على وجوده وكماله، فلم يعبأ بذلك كلِّه، فلما انقطَع عن الله اعترافًا وتعبدًا تعلق بالطبيعةِ فعبدها وصارَ قلبه شبيهًا

بقلوب البهائم السائمةِ، ليس له همة إلا التمتعُ بالأمور المادية، وقلبه دائمًا غيرُ مطمئن، بل خائف من فوات محبوباتِه، وخائف من حصولِ المكاره التي تنتابُه، وليس معه من الإيمانِ ما يُسَهِّلُ عليه المصيبات، وما يخفِّفُ عنه النكبات، قد حُرِمَ لذة الإيمانِ، وحلاوة التقرب إلى الله، وثمراتُ الإيمان العاجلةُ والآجلة، لا يرجو ثوابًا، ولا يَخشى عقابًا، وإنما خوفُه ورجاؤه متعلقٌ بمطالب النفوسِ الدنيوية الخسيسةِ المادية.

ومن أوصافِ المؤمن التواضُعُ للحق وللخَلقِ، والنصيحةُ لعباد الله على اختلاف مراتِبِهم قولًا وفعلًا ونية.

والجاحدُ وصفه التكبر على الحقِّ وعلى الخَلق، والإعجابُ بالنفس، لا يَدينُ بالنصيحة لأحد.

المؤمن سليمُ القلبِ من الغش والحقدِ، يحب للمسلمين ما يحب لنفسِه، ويكره لهم ما يكره لنفسِه، ويسعى بحسب وسعِه في مصالحهم، ويتحمَّلُ أذى الخلقِ، ولا يظلمهم بوجهٍ من الوجوه.

والجاحدُ قلبُه يغلي بالغلِّ والحقد، ولا يُريدُ لأحد خيرًا ولا نفعًا إلا إذا كان له في ذلك غرضٌ دنيوي، ولا يبالي بظلمِ الخلق عند قدرته، وهو أضعفُ شيءٍ عن تحمل ما يُصيبه منهم.

المؤمن صدوقُ اللسان حسنُ المعاملة، وصفُه الحِلمُ والوقار، والسكينة والرحمة، والصبرُ والوفاء، وسهولةُ الجانب ولين العَريكةِ[1].

(١) لينُ العريكة: جمال العشرة وسهولة الخلق.

والجاحدُ وصفُهُ الطيشُ والقسوة، والجزعُ والهلع، والكذبُ وعدم الوفاءِ، وشراسةُ الأخلاق.

المؤمن لا يذل إلا لله، قد صانَ قلبَه ووجهه عن بذلِه وتذلُّـلِه لغيرِ ربه، وَصفُه العفةُ والقوة، والشجاعة والسخاءُ والمروءة، لا يختارُ إلا كل طيب.

أما الجاحدُ فعلى الضدِّ من ذلك، قد تعلق قلبُه بالمخلوقين خوفًا من ضررِهِم، ورجاءً لنفعهم، وبَذلَ لهم ماءَ وجهه، وليس له عفةٌ، ولا قوة، ولا شجاعة إلا في أغراضِه السفلية، عادمُ المروءة والإنسانية، لا يبالي بما حصلَ له من طيب أو خبيث.

المؤمن قد جمعَ بين السعي في فعلِ الأسباب النافعة، والتوكُّلِ على الله، والثقة به، وطلب العون منه في كلِّ الأمور، والله تعالى في عونه.

وأما الجاحدُ فليس عنده من التوكلِ خبرٌ، وليس له نظر إلا إلى نفسِه الضعيفةِ المهينة، قد ولاه الله ما تولى لنفسِه، وخذله عن إعانتِه على مطالبه، فإن قدِّرَ له ما يحب كان استدراجًا.

المؤمنُ إذا أتته النعمُ تلقاها بالشكرِ، وصرفها فيما ينفعُه ويعودُ عليه بالخير.

وغير المؤمن يتلقاها بأَشَرٍ، وبَطَرٍ، واشتغال بالنعمة عن المنعِم، وعن شكرِه، ويصرُفها في أغراضِه السفلية وهي مع هذا سريعٌ زوالُها، قريبٌ انفصالها.

المؤمن إذا أصابتهُ المصائب قابلَها بالصبر والاحتسابِ، وارتقابِ الأجر والثواب، والطمع في زوالها، فيكون ما عُوِّضَ من الخيرِ والثواب أعظمَ مما فاته من محبوبٍ أو حصل له من مكروه.

والجاحد يتلقاها بهلعٍ وجزع، فتزداد مصيبتُه، ويجتمعُ عليه ألم الظاهر وألم القلب، قد عدم الصبرَ، وليس له رجاء في الأجر، فما أشد حسرتِه! وأعظم حزنه!

المؤمن يدين الله بالإيمان بجميعِ الرسل وتعظيمِهم وتقديم محبتهم على محبة الخلق كلِّهم، ويعترف أن كل خيرٍ ينال الخلقَ إلى يوم القيامة، فعلى أيديهم وبإرشادِهم، وكلَّ شرٍّ وضرٍّ ينال الخلق فسببه مخالفتُهم، فهم أعظم الخلق إحسانًا إلى الخلقِ، وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمدًا ﷺ، الذي جعله الله رحمةً للعالمين، وبعثه لكل صلاحٍ وإصلاحٍ وهداية.

وأما الملحدون فبضِدِّ ذلك، يعظمون أعداءَ الرسل ويحترمون أقوالهم، ويهزؤون كأسلافِهم بما جاءت به الرسل، وذلك أكبر دليلٍ على سخافةِ عقولهم، وهبوطِ أخلاقِهم إلى أسفل سافلين.

المؤمن يدين الله بمحبةِ الصحابة وأئمةِ المسلمين وأئمةِ الهدى، والملحدُ بالعكسِ.

المؤمن -لِكمالِ إخلاصه لله- يعمل لله، ويُحسنُ إلى عباد الله.

والجاحد ليس لعملِه غاية إلا تحصيلُ أغراضِه الخسيسةِ.

المؤمن منشرحُ الصدر بالعلمِ النافع والإيمان الصحيحِ والإقبالِ على الله واللَّهج بذكره والإحسان إلى الخلق وسلامةِ الصدر من الأوصاف الذميمةِ.

والجاحد الغافل ضد ذلك؛ لفقدِه الأسباب الموجبة لانشراحِ الصدر.

فإذا قيل: إذا كان الإيمان الصحيحُ كما وصفت، مع اختصارِك واقتصارِك، وأن به السعادة العاجلة والآجلة، وأنه يُصلِحُ الظاهرَ والباطن، والعقائدَ والأخلاق والآداب، وأنه يدعو البشرَ كلَّهم إلى كل خير وصالحٍ، ويهدي للتي هي أقومُ، فإذا كان الأمر كما ذكرت، فلم كان أكثرُ البشر عن الدين والإيمان مُعرضين، وله محاربين، ومنه ساخرين؟ وهلا كان الأمرُ بالعكس؛ لأن الناس لهم عقولٌ وأذهانٌ تختارُ الصالح على الفاسدِ، والخيرَ على الشرِّ، والنافعَ على الضارِّ؟

فالجَوابُ: أن هذا الإيرادَ قد ذكرهُ الله في كتابه، وأجابَ عنه بذكرِ الأسباب الواقعةِ المانعة، وبالموانِع العائقة، وبذِكرِ الأجوبة عن هذا الإيرادِ لا يهولُ العبدَ ما يراه من إعراضِ أكثر البشرِ عنه، ولا يستغربُ ذلك.

۞ من موانِع الإيمانِ:

فأقولُ: قد ذكرَ الله لعدم الإيمان بالدينِ الإسلامي موانعَ عديدةً واقعة من جمهور البشرِ، منها: الجهلُ به، وعدم معرفته حقيقةً، وعدم الوقوفِ على تعاليمه العاليةِ وإرشاداته السامية.

والجهلُ بالعلومِ النافعة أكبرُ عائق، وأعظمُ مانع من الوصولِ إلى الحقائق الصحيحة والأخلاقِ الجميلة، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: ٣٩]، فأخبرنا أن تكذيبَهم صادرٌ عن جهلِهم، وعدم إحاطتِهم بعلمه، وأنه لم يأتِهم تأويلُه الذي هو وقوعُ العذاب الذي يوجبُ للعبد الرجوعَ إلى الحقِّ والاعترافَ به، ويقول تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنعام: ٣٧]، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤]، إلى غيرِ ذلك من النصوصِ الدالة على هذا المعنى.

والجهلُ إما أن يكون بسيطًا، كحالِ كثيرٍ من دَهماءِ[1] المكذبين للرسولِ الرادين لدعوتِه اتباعًا لرؤسائِهم وساداتِهم، وهم الذين يقولون إذا مسَّهُم العذابُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وإما أن يكون الجهلُ مركبًا، وهذا على نوعين:

---

(١) الدهماء: عامة الناس وسوادهم.

أحدُهما: أن يكون على دينِ قومِه وآبائه ومن هو ناشئٌ معهم، فيأتيه الحق فلا ينظرُ فيه، وإن نظرَ فنظرٌ قاصر جدًّا لرضاه بدينه الذي نشأَ عليه وتعصبِه لقومه، وهؤلاء جمهورُ المكذبين للرسلِ، الرادِّين لدعوتِهم، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذا هو التقليدُ الأعمى الذي يظن صاحبُه أنه على حقٍّ، وهو على الباطلِ، ويدخل في هذا النوعِ أكثرُ الملحدين الماديين، فإن علومَهم عند التحقيقِ تقليدٌ لزعمائِهم، إذا قالوا مقالةً قبلوها كأنها وحي مُنزلٌ، وإذا ابتكروا نظريةً خاطئة سلكوا خلفَهم في حال اتفاقِهم وحال تناقضِهم، وهؤلاء فتنةٌ لكل مفتونٍ لا بصيرةَ له.

النوعُ الثاني من الجهلِ المركبِ: حالةُ أئمةِ الكفرِ وزعماءِ الملحدين، الذين مهروا في علوم الطبيعةِ والكون، واستجهلوا غيرَهم وحصروا المعلومات في معارِفِهم الضئيلةِ ضيقةِ الدائرة، واستكبروا على الرسل وأتباعِهم، وزعموا أن العلومَ محصورةٌ فيما وصلت إليه الحواسُّ الإنسانية والتجارب البشرية، وما سوى ذلك أنكروه وكَذَّبوه، مهما كان من الحقِّ؛ فأنكروا ربَّ العالمين، وكذبوا رسله، وكذبوا بما أخبرَ الله به ورسولُه من أمور الغيبِ كلِّها، وهؤلاء أحقُّ الناس بالدخولِ تحت قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

ففرحُهم بعلومِهم؛ علومِ الطبيعة، ومهارَتِهم فيها هو السببُ الأقوى الذي أوجبَ لهم تمسكَهم بما معهم من الباطلِ، وفرحهم بها يقتضي تفضيلَهم لها، ومدحهم لها، وتقديمها على ما جاءت به الرسلُ من الهدى والعلمِ، بل لم يكفِهم هذه الحالُ حتى وصلوا إلى الاستهزاءِ بعلوم الرسلِ واستهجانها، وسيحيقُ بهم ما كانوا به يستهزئون.

ولقد انخدعَ لهؤلاء الملحدين كثيرٌ من المشتغلين بالعلومِ العصريةِ التي لم يصحبها دين صحيحٌ، والعهدة في ذلك على المدارِسِ التي لم تهتم بالتعاليمِ الدينية العاصمةِ من هذا الإلحادِ، فإن التلميذ إذا خرج منها لم يمهر في العلومِ الدينية، ولا تخلَّقَ بالأخلاق الشرعية، ورأى نفسَه أنه يعرفُ ما لا يَعرفُه غيرُه احتقرَ الدين وأهله، وسهُلَ عليه الانقيادُ لهؤلاء الملحدين الماديين، وهذا أكبرُ ضررٍ ضُرِبَ به الدين الإسلامي.

فالواجبُ قبل كل شيء على المسلمين نحو المدارسِ أن يكون اهتمامُهم بتعليم العلومِ الدينية قبل كلِّ شيءٍ، وأن يكون النجاحُ وعدمه متعلقًا بها لا بغيرها، بل يُجعَلُ غيرُها تبعًا، وهذا من أفرض الفرائضِ على من يتولاها ويباشرُ تدبيرها، وعلى الأساتذة المعلمين فيها، ومستقبلُ الشبيبةِ متوقف على هذا الأمرِ، فليتَّقِ الله من له ولايةٌ أو كلام عليها، وليحتسب الأجرَ العظيم عند الله في جعلِ الدين أهمَّ العلومِ المدرسية، فإن الخطر كبيرٌ مع الإهمال، والصلاحِ والخيرُ مضمونٌ مع العناية في علومِ الدين.

۞ الحَسدُ والبَغيُ:

ومن موانعِ الدين والإيمان الحسدُ والبغي، كحالِ اليهودِ الذين يعرفون النبيَّ ﷺ وصدقَه وحقيقةَ ما جاء به كما يَعرفون أبناءَهم، ويكتمون الحقَّ وهم يعلمون، تقديمًا للأغراضِ الدنيوية والمطالب السفلية على الإيمانِ.

وقد منع هذا الداءُ كثيرًا من رؤساء قريشٍ، كما هو معروف من أخبارِهم وسِيَرِهم، وهذا الداءُ ناشئٌ عن الكبر الذي هو أعظمُ الموانع من اتباعِ الحق؛ قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]،

فالتكبرُ الذي هو رد الحقِّ واحتقارُ الخلق - منع خلقًا كثيرًا من اتباع الحقِّ والانقياد له بعدما ظهرت آياتُه وبراهينه؛ قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

۞ الإعراضُ عن الأدلةِ:

ومن موانعِ الإيمان الإعراضُ عن الأدلة السمعيةِ والأدلة العقليةِ الصحيحة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، فلم يكن لأمثالِ هؤلاء الذين اعترفوا بعدمِ عقلِهم وسمعِهم النافع رغبةً في علوم الرسل والكتب المنزلةِ من الله، ولا عقول صحيحة يهتدون بها إلى الصوابِ، وإنما لهم آراءٌ ونظريات خاطئة يظنونها عقلياتٍ وهي جهالات، ولهم اقتداءٌ خلف زعماءِ الضلال منعهم من اتباعِ الحق حتى وردوا نارَ جهنَّمَ، فبئس مثوى المتكبرين.

۞ ردُّ الحقِّ بعدما تَبيَّن:

ومن موانعِ اتباع الحقِّ ردُّه بعدما تبين، فيعاقَبُ العبدُ بانقلاب قلبه ورؤيته الحسنَ قبيحًا والقبيحَ حسنًا؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وهذا لأن الجزاءَ من جنسِ العَملِ، وقد ولاهم الله ما قالوا لأنفسِهم: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

۞ الانغماسُ في التَّرفِ:

ومن الموانعِ الانغماسُ في الترف، والإسرافُ في التنعم، فإنه يجعلُ العبدَ تابعًا لهواه، منقادًا للشهواتِ الضارةِ، كما ذكر الله هذا المانعَ في عدة آيات مثل قوله: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٥]، فلما جاءتهم الأديانُ الصحيحة بما يعدِّلُ ترفَهم، ويوقفهم على الحدِّ النافع، ويمنعُهم من الانهماك الضارِّ في اللذات رأوا ذلك صادًّا لهم عن مؤاداتهم، وصاحبُ الهوى الباطلِ ينصر هواه بكلِّ وسيلة، لما جاءهم الدين بوجوبِ عبادة الله، وشكرِ المنعم على نعمِه، وعدمِ الانهماك في الشهوات وَلَّوا على أدبارِهم نفورًا.

۞ احتقارُ الرسلِ:

ومن الموانعِ احتقارُ المكذبين للرسلِ وأتباعِهم، واعتقادُ نقصِهم، والتهكُّمُ بهم؛ كما قال قوم نوح: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧]. وهذا منشؤه من الكِبرِ، فإذا تكبرَ وتعاظمَ في نفسه واحتقرَ غيرَه اشمأز من قبولِ ما جاء به من الحق حتى لو فُرِضَ أن هذا الذي ردَّهُ جاءه من طريقٍ من يعظمُه لقَبِلَه بلا تردُّدٍ، وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس: ٣٣].

فالفسقُ وهو خروجُ العبد عن طاعةِ الله إلى طاعةِ الشيطان، وكون القلبِ على هذا الوصفِ الخبيث أكبرُ مانعٍ من قبول الحق علمًا وعملًا، والله تعالى لا يزكي من هذه حالُه، بل يكلُه إلى نفسه الظالمة، فتجولُ في الباطلِ عنادًا وضلالًا، وتكون حركاته كلُّها شرًّا وفسادًا؛ فالفسق يقرنه بالباطلِ، ويصده عن الحقِّ؛ لأن القلب متى

خرج عن الانقيادِ لله والخضوعِ فلا بدَّ أن ينقادَ لكل ﴿شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣، ٤].

۞ حَصرُ العلومِ في مَدرَكاتِ الحسِّ:

ومن أكبرِ موانعِ اتباع الحقِّ والإيمان حصرُ العلوم والحقائق في دائرةٍ ضيقة، كما فعل ملاحدةُ الماديين في حصرِهم العلومَ ومدركات الحسِّ، فما أدركوه بحواسِّهم أثبتوه، وما لم يدركوه بها نَفَوه ولو ثبتَ بطرقٍ وبراهينَ أعظم بكثيرٍ وأوضح وأجلى من مدركات الحسِّ.

وهذه فتنة وشبهة ضلَّ بها خلقٌ كثير، وهذه الطريقة الخبيثةُ أنكروا بها وجودَ الرب، وكفروا بالرسلِ وبما أخبروهم به من أمورِ الغيب التي قامت الأدلةُ والبراهينُ المتنوعة على صدقِها، بل قامت الأدلةُ المشاهدة على حقِّها.

ومن المعلومِ بالضرورة والعلم اليقينيِّ أن البراهين على وجودِ الباري ووحدانيتِه وانفراده بالخلقِ والتدبير لا يمكن أن يساويها أو يُقاربَها شيءٌ من الطرق المثبتةِ لأيِّ حقيقة تكون؛ فقد قامت الأدلةُ السمعيةُ والعقلية والعيانيةُ والفطرية على ذلك، وقد أظهرَ من آياتِه في الآفاق وفي الأنفسِ ما تبين به الحقُّ، وأنه حق، ورسلُه حقٌّ، وجزاؤه حقٌّ، وجميعُ أخباره حقٌّ، ودينه حق، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال؟! ولكن تمرُّدُ الماديين وكبرُهم حالَ بينهم وبين الحقِّ النافع الذي لا ينفعُ غيره بدونِه بوجه من الوجوه، والمؤمن البصيرُ يعرف بنورِ بصيرته أنهم في ضلالٍ مبين، وعمًى متراكمٍ، ونحمد الله على نعمةِ الهدايةِ.

۞ الزَّعمُ بأن البشريةَ لم تَصِلِ إلى الرشدِ زمانَ الرسلِ:

ومن الموانعِ تجرد الماديين ومن تبعهم من المغرورين، وزعمُهم أن البشرَ لم يبلغوا الرشدَ ونضوجَ العقلِ إلا في هذه الأوقاتِ التي طغت فيها المادةُ وعلومُ الطبيعة، وأنهم قبل ذلك لم يبلغوا الرشدَ، وهذا فيه من الجراءةِ والإقدامِ على السفسطةِ والمكابرة للحقائقِ والمباهتة ما لا يَخفى على من له أدنى معقولٍ لم تغيره الآراءُ الخبيثةُ، فلو قالوا: إن المادة والصناعة والاختراعات وتطويعَ الأمور الطبيعيةِ لم تنضج وتتم إلا في الوقتِ الأخير؛ لصَدَّقهم كلُّ واحدٍ.

وأما تعريفُهم على هذا وتجرُّئهم وتعديهم إياه إلى العلومِ الصحيحةِ والحقائقِ الثابتة والأخلاق الجميلةِ فقضيةٌ من أكذب القضايا، فإن العقولَ والعلوم الصحيحةَ إنما تُعرفُ ويُستدلُّ على كمالها أو نقصِها بآثارها وبأدلتِها وغاياتها، انظر إلى الكمالِ والعلو في العقائدِ والأخلاق والدين والدنيا والرحمةِ والحكمة التي جاء بها محمدٌ ﷺ، وأخذها عنه المسلمون وأوصلتهُم وقت عملِهم بها إلى كلِّ خير ديني ودنيوي وكل صلاحٍ، وأخضعت لهم جميعَ الأمم، وأنهم وصلوا إلى حالةٍ وكمال يستحيلُ أن يصل إليه أحد حتى يسلُكَ طريقهم.

ثم انظر إلى ما وصلت إليه أخلاقُ الماديين الإباحيين، الذين أطلقوا السراحَ لشهواتهم، ولم يقفوا عند حد حتى هبطوا بذلك إلى أسفلِ سافلين، ولولا القوةُ المادية تُمسكُهم بعض التماسك لأردَتهُم هذه الإباحيةُ والفوضى في الهلاك العاجلِ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ثم لولا بقايا من آدابِ الأديان بقِيَت بعضُ آثارها في الشعوبِ الراقية، صلحت بها دنياهم لم يكن لرقيِّهم المادي قيمةٌ عاجلة، فإن الذين فقدوا الدين عجزوا كلَّ

العجز عن الحياةِ الطيبة، والراحة الحاضرةِ، والسعادة العاجلة، والمشاهدةُ أقوى شاهدٍ لذلك.

ومشركو العرب ونحوهم ممن عندهم بعضُ الإيمان وبعض الاعترافِ بالأصول الإيمانيةِ؛ كتوحيد الربوبيةِ والاعتراف بالجزاءِ؛ خيرٌ بكثير من هؤلاء الماديين بلا ريبٍ ولا شكٍّ، ثم قد عُلمَ بالضرورة أن الرسلَ صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بالوحيِ والهداية جملة وتفصيلًا، وبالنورِ والعلمِ الصحيح والصلاحِ المطلق من جميعِ الوجوه، واعترفت العقولُ الصحيحة بذلك وعلمت أنها في غايةِ الافتقارِ إليه، وخَضَعَت لما جاءت به الرسلُ، وعلمت العقولُ أنها لو اجتمعت من أولها إلى آخِرها لم تَصِل إلى درجةِ الكتب.. إلى الحقائقِ النافعةِ التي جاءت بها الرسلُ، ونزلت بها الكتب.. وأنه لولاها لكانت في ضلالٍ مبين، وعمًى عظيمٍ، وشقاءٍ وهلاك مستمر، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالعقولُ لم تبلغ الرشدَ الصحيحَ، ولم تنضج إلا بما جاءت به الرسلُ.

ومن ذلك انخداعُ أكثر الناس بالألفاظِ التي يُزوَّقُ بها الباطلُ، ويُرَدُّ بها الحق من غير بصيرةٍ ولا علم صحيح، وذلك لتسميتِهم علومَ الدين وأخلاقَه العالية رجعيةً وتسميتهم العلومَ والأخلاق الأُخَر المنافية لذلك ثقافةً وتجديدًا.

ومن المعلوم لكل صاحبِ عقلٍ صحيحٍ أن كل ثقافة وتجديدٍ لم يستند في أصولِه إلى هداية الدين وإلى توجهات الدين فإنه شرٌّ وضررٌ عاجل وآجل، ومن تأمل أدنى تأمل ما عليه من يُسَمَّون (المثقفين الماديين) من هبوطِ الأخلاق، والإقبالِ على كل ضارٍّ، وترك كل نافع عرف أن الثقافة الصحيحةَ تثقيفُ العقول بهداية الرسلِ

وعلومهم الصحيحة، وتثقيفُ الأخلاق تهذيبها بالأخلاقِ الحميدة الجميلة والتوجيهاتِ النافعة التي تشتملُ على الصلاح المطلقِ، والاستعانة بعلومِ المادة الصحيحة على الخيرِ والصلاحِ والنجاحِ.

فالإسلامُ يأمر ويحثُّ على تحصيلِ السعادتين، وتكميلِ الفضيلتين، ومن تأمل ما جاء به الدين الإسلاميُّ من الكتاب والسنةِ، جملة وتفصيلًا، عرف أنه لا صلاحَ للبشر إلا بالرجوعِ إلى هدايته وإرشاده، وأنه كما أصلح العقائدَ والأخلاقَ والأعمالَ فقد أصلح أمورَ الدنيا، وأرشدَ إلى كل ما يعود إلى الخيرِ والنفع العام والخاصِّ، والله الموفِّقُ الهادي، وصلى الله على محمد وسلم.



الرسالة الثانية

مختصر في

أصول العقائد الدينية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله على محمدٍ وآله وصحبه وأتباعِه إلى يوم الدين؛ أما بعد: فهذا مختصرٌ جدًّا في أصول العقائدِ الدينية والأصولِ الكبيرة المهمة اقتصرنا فيها على مجردِ الإشارة والتنبيه من غير بسطٍ للكلام ولا ذكرِ أدلته، وأقربُ ما يكون لها أنها من نوع الفهرست للمسائلِ لتُعرَف أصولها ومقامُها ومحلها من الدين، ثمَّ من له رغبةٌ في العلمِ يطلبُ بَسطَها وبراهينها من أماكِنِها، وإن يسَّرَ الله وفسح في الأجلِ بسطتُ هذه المطالب ووضحتها بأدلتها.

الأصلُ الأول: التوحيدُ

حدُّ التوحيدِ الجامعِ لأنواعه هو: اعتقادُ العبدِ وإيمانه بتفرد الله بصفاتِ الكمالِ، وإفراده بأنواعِ العبادة.

فدخلَ في هذا توحيدُ الربوبية الذي هو: اعتقادُ انفرادِ الربِّ سبحانه بالخلق، والرزقِ، وأنواع التدبيرِ.

وتوحيدُ الأسماء والصفاتِ وهو: إثباتُ ما أثبتَهُ لنفسِه، وأثبته له رسولُه من الأسماءِ الحسنى، والصفاتِ الكاملة العليا، من غيرِ تشبيهٍ، ولا تمثيلٍ، ومن غير تحريفٍ، ولا تعطيل.

وتوحيدُ الألوهيةِ والعبادة وهو إفرادُه وحده بأجناسِ العبادة وأنواعِها وإفرادها من غيرِ إشراك به في شيءٍ منها، مع اعتقادِ كمال ألوهيته.

فدخل في توحيدِ الربوبية إثباتُ القضاء والقدر، وأنه ما شاءَ الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كلِّ شيء قديرٌ، وأنه الغني الحميدُ، وما سواه فقيرٌ إليه من كل وجهٍ.

ودخل في توحيدِ الأسماء والصفاتِ إثباتُ جميعِ معاني الأسماءِ الحسنى لله تعالى الواردةِ في الكتاب والسنة.

والإيمانُ بها ثلاثُ درجاتٍ:

إيمانٌ بالأسماءِ، وإيمانٌ بالصفات، وإيمانٌ بأحكامِ صفاته؛ كالعِلمِ بأنه عليمٌ ذو علم ويعلمُ كلَّ شيء، قديرٌ ذو قدرةٍ ويقدِرُ على كل شيءٍ، إلى آخر ما له من الأسماءِ المقدسة.

ودخل في ذلك إثباتُ علوه على خلقِه، واستوائه على عرشِه، ونزولِه كل ليلةٍ إلى سماء الدنيا على الوجهِ اللائق بجلالِه وعظمتِه.

ودخل في ذلك إثباتُ الصفات الذاتية التي لا ينفكُّ عنها كالسمعِ والبصر والعلمِ والعلو ونحوها، والصفات الفعليةِ وهي الصفات المتعلقةُ بمشيئته وقدرتِه كالكلامِ، والخلق، والرزق، والرحمةِ، والاستواء على العرشِ، والنزول إلى السماءِ الدنيا كما يشاء، وأن جميعها تثبُت لله من غيرِ تمثيلٍ، ولا تعطيلٍ، وأنها كلها قائمة بذاتِه، وهو موصوف بها.

وأنه تعالى لم يَزل ولا يَزالُ يقولُ ويفعلُ، وأنه فعالٌ لما يريد، ويتكلم بما شاء إذا شاءَ كيف شاء، لم يزل بالكلامِ موصوفًا، وبالرحمةِ والإحسان معروفًا.

ودخل في ذلك الإيمانُ بأن القرآن كلامُ الله منزل غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ، وإليه يعودُ، وأنه المتكلِّم به حقًّا، وأن كلامَه لا ينفَد ولا يَبيدُ.

ودخل في ذلك الإيمانُ بأنه قريبٌ مجيب، وأنه مع ذلك عليٌّ أعلى، وأنه لا منافاةَ بين كمالِ علوه وكمال قربِه؛ لأنه ليس كمثلِه شيءٌ في جميع نعوتِه وصفاته.

ولا يتم توحيدُ الأسماء والصفاتِ حتى يؤمنَ بكل ما جاء به الكتابُ والسنة من الأسماءِ والصفات والأفعالِ وأحكامها على وجه يليقُ بعظمةِ الباري، ويعلم أنه كما لا يُماثِلُه أحدٌ في ذاته فلا يماثلُه أحدٌ في صفاتِه.

ومَن ظنَّ أن في بعض العقليات ما يوجبُ تأويلَ بعض الصفاتِ على غير معناها المعروفِ فقد ضلَّ ضلالًا مبينًا.

ولا يتم توحيدُ الربوبيةِ حتى يعتقِدَ العبدُ أن أفعال العبادِ مخلوقةٌ لله، وأن مشيئتَهم تابعةٌ لمشيئة الله.

وأن لهم أفعالًا وإرادةً تقع بها أفعالهم وهي متعلقُ الأمرِ والنهي، وأنه لا يتنافى الأمران: إثباتُ مشيئةِ الله العامة الشاملةِ للذوات والأفعالِ والصفات، وإثباتُ قدرة العبدِ على أفعالِه وأقواله.

ولا يتمُّ توحيد العبدِ حتى يخلِصَ العبدُ لله تعالى في إرادتِه وأقوالِه وأفعالِه، وحتى يَدَعَ الشرك الأكبرَ المنافيَ للتوحيدِ كلَّ المنافاة، وهو أن يصرفَ نوعًا من أنواع العبادةِ لغير الله تعالى.

وكمالُ ذلك أن يدعَ الشركَ الأصغرَ، وهو كلُّ وسيلة قريبةٍ يُتَوَصَّلُ بها إلى الشركِ الأكبر كالحلفِ بغيرِ الله، ويسيرِ الرياءِ، ونحو ذلك.

والناسُ في التوحيدِ على درجاتٍ متفاوتة بحسب ما قاموا به من معرفةِ الله والقيامِ بعبوديته.

فأكملُهم في هذا الباب مَن عرفَ من تفاصيلِ أسماء الله وصفاتِه وأفعالِه وآلائه ومعانيها الثابتةِ في الكتاب والسنةِ وفَهِمَها فهمًا صحيحًا، فامتلأَ قلبُه من معرفة الله، وتعظيمِه، وإجلالِه، ومحبته، والإنابة إليه، وانجذاب جميعِ دواعي قلبه إلى الله تعالى، متوجهًا إليه وحده لا شريكَ له.

ووقعت جميعُ حركاته وسَكَناتِه في كمالِ الإيمان والإخلاصِ التام الذي لا يشوبُه شيء من الأغراضِ الفاسدة، فاطمأن إلى الله معرفةً وإنابةً وفعلًا وتركًا وتكميلًا لنفسِه وتكميلًا لغيره بالدعوةِ إلى هذا الأصل العظيمِ، فنسأل الله من فضلِه وكرمه أن يتفضَّلَ علينا بذلك.

الأصلُ الثاني: الإيمانُ بنبوةِ جميعِ الأنبياءِ عمومًا ونبوةِ محمدٍ ﷺ خصوصًا

وهذا الأصلُ مبناه على أن يعتقِدَ ويؤمنَ بأن جميعَ الأنبياء قد اختصَّهم الله بوحيِه، وإرسالِه، وجعلَهُم وسائطَ بينه وبين خلقِه في تبليغِ شرعِه ودينه.

وأن الله أيدهم بالبراهينِ الدالةِ على صدقِهِم، وصحةِ ما جاؤوا به، وأنهم أكملُ الخلقِ علمًا وعملًا، وأصدقُهم وأبرهم وأكملُهم أخلاقًا وأعمالًا.

وأن الله خصَّهم بخصائصَ وفضائلَ لا يلحقهم فيها أحدٌ، وأن الله برَّأَهُم من كل خُلقٍ رذيلٍ.

وأنهم معصومون فيما يُبلِّغون عن الله تعالى، وأنه لا يستَقِرُّ في خبرِهم وتبليغِهم إلا الحق والصواب.

وأنه يجبُ الإيمان بهم وبكلِّ ما أوتوه من الله ومحبَّتُهم وتعظيمُهم، وأن هذه الأمورَ ثابتةٌ لنبينا محمدٍ ﷺ على أكملِ الوجوه.

وأنه يجب معرفةُ جميعِ ما جاء به من الشرعِ جملةً وتفصيلًا، والإيمان بذلك والتزامُ طاعته في كل شيءٍ بتصديقِ خبره، وامتثالِ أمره، واجتنابِ نهيه.

ومن ذلك أنه خاتمُ النبيين قد نَسَخَت شريعتُه جميعَ الشرائع، وأن نبوتَه وشريعتَه باقيةٌ إلى قيامِ الساعةِ، فلا نبيَّ بعده، ولا شريعةً غيرَ شريعتِه في أصول الدين وفروعِه.

ويدخلُ في الإيمان بالرسلِ الإيمان بالكتبِ، فالإيمان بمحمدٍ ﷺ يقتضي الإيمان بكل ما جاء به من الكتابِ والسنة؛ ألفاظِها ومعانيها، لا يتمُّ الإيمان به إلا بذلك.

وكل من كان أعظمَ علمًا بذلك وتصديقًا واعترافًا وعملًا كان أكملَ إيمانًا.

والإيمان بالملائكةِ والقَدرِ داخلٌ في هذا الأصلِ العظيم.

ومن تمامِ الإيمان به أن يَعلمَ أن ما جاء به[1] حقٌّ، لا يمكن أن يقومَ دليل عقلي أو حسيٌّ على خلافه، كما لا يقوم دليلٌ نقلي على خلافِه، فالأمور العقليةُ أو الحسية النافعةُ تجد دلالةَ الكتاب والسنة مثبتةً لها، حاثَّةً على تعلُّمها وعملها، وغير النافعِ من المذكورات ليس فيها ما ينفي وجودَها وإن كان الدليلُ الشرعي ينهى ويذم الأمورَ الضارةَ منها، ويدخلُ في الإيمان بما جاءَ به الرسولُ ﷺ بل وسائرِ الرسلِ.

الأصلُ الثالثُ: الإيمانُ باليومِ الآخرِ

فكلُّ ما جاء به الكتاب والسنةُ مما يكون بعد الموتِ فإنه من الإيمان باليومِ الآخر؛ كأحوالِ البرزخِ، وأحوال يوم القيامةِ وما فيها من الحسابِ والثواب والعقابِ، والشفاعة، والميزان، والصحفِ المأخوذةِ باليمين والشمالِ، والصراط، وأحوالِ الجنة والنارِ، وأحوال أهلها، وأنواعِ ما أعدَّ الله فيها لأهلها إجمالًا وتفصيلًا، فكل ذلك داخلٌ في الإيمان باليومِ الآخر.

الأصلُ الرابعُ: مسألةُ الإيمانِ

فأهلُ السنة يَعتقدون ما جاء به الكتابُ والسنة من أن الإيمانَ هو تصديقُ القلب المتضمن لأعمالِ الجوارحِ، فيقولون: الإيمانُ اعتقاداتُ القلوبِ، وأعمالها وأعمالُ الجوارحِ وأقوالُ اللسان، وأنها كلَّها من الإيمان.

وأن من أكمَلَها ظاهرًا وباطنًا فقد أكملَ الإيمان، ومن انتَقَصَ شيئًا منها فقد انتقَصَ من إيمانِه.

---

(١) الرسول.

وهذه الأمورُ بضعٌ وسبعون شعبةً: «**أعلاها قولُ: لا إلَهَ إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ**»[1].

ويرتبون على هذا الأصلِ أن الناس في الإيمانِ درجاتٌ: مقربون، وأصحابُ يمين، وظالمون لأنفسِهم بحسب مقاماتهم من الدينِ والإيمان.

وأنه يَزيدُ وينقُصُ، فمن فعل محرمًا أو ترك واجبًا نقصَ إيمانه الواجبُ ما لم يتُب إلى الله.

ويُرتِّبون على هذا الأصلِ أن الناس ثلاثةُ أقسام: منهم من قام بحقوقِ الإيمان كلِّها، فهو المؤمن حقًّا، ومنهم من تركَها كلَّها، فهذا كافرٌ بالله تعالى، ومنهم من فيه إيمانٌ وكفرٌ، أو إيمان ونفاقٌ، أو خيرٌ وشرٌّ، ففيه من ولاية الله واستحقاقِه لكرامتِه بحسب ما معه من الإيمان، وفيه من عداوةِ الله واستحقاقِه لعقوبتِه بحسب ما ضيَّعهُ من الإيمان.

ويُرتِّبون على هذا الأصلِ العظيمِ أن كبائرَ الذنوبِ وصغائِرَها التي لا تصلُ بصاحبها إلى الكفرِ تنقصُ إيمان العبدِ من غير أن تخرجَهُ من دائرةِ الإسلام، ولا يُخَلَّد في نارِ جهنم.

ولا يُطلقون عليه الكفرَ كما تقولُ الخوارجُ، أو ينفون عنه الإيمان كما تقولُه المعتزلة، بل يقولون: هو مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرتِه، فمعه مطلقُ الإيمانِ، وأما الإيمانُ المطلقُ فيُنفى عنه.

وبهذه الأصولِ يحصلُ الإيمان بجميعِ نصوصِ الكتاب والسُّنةِ.

ويترتَّبُ على هذا الأصلِ أن الإسلامَ يجُبُّ ما قبلَه، وأن التوبةَ تجُبُّ ما قَبلَها، وأن من ارتَدَّ ومات على ذلك فقد حبِطَ عملُه، ومن تابَ تابَ الله عليه.

---

(١) مسلم (٣٥).

ويُرتِّبون أيضًا على هذا الأصلِ صحةَ الاستثناء في الإيمانِ، فيصحُّ أن يقول: أنا مؤمنٌ إن شاء الله؛ لأنه يَرجو من الله تعالى تكميلَ إيمانه، فيَستثني لذلك، ويرجو الثباتَ على ذلك إلى المهات، فيستثني من غيرِ شكٍّ منه بحصولِ أصلِ الإيمان.

ويرتبون أيضًا على هذا الأصلِ أن الحبَّ والبغضَ أصله ومقدارُهُ تابعٌ للإيمان وجودًا وعدمًا، وتكميلًا ونقصًا، ثم يتبع ذلك الولايةُ والعداوةُ؛ ولهذا من الإيمانِ: الحبُّ في الله، والبغضُ لله، والولايةُ لله، والعداوةُ لله.

ويترتب على الإيمانِ، ولا يتمُّ إلا بأن يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه، ويترتب على ذلك أيضًا محبةُ اجتماعِ المؤمنين، والحثُّ على التآلف والتحابُبِ، وعدم التقاطعِ.

ويبرأ أهلُ السنة والجماعةِ من التعصباتِ والتفرقِ والتباغضِ، ويَرَون أن هذه القاعدةَ من أهم قواعدِ الإيمان، ولا يَرون الاختلافَ في المسائل التي لا تصِلُ إلى كفرٍ أو بدعةٍ، موجبًا للتفرقِ.

ويترتب على الإيمانِ محبةُ أصحابِ النبيِّ ﷺ بحسب مراتبِهم وعملِهم، وأن لهم من الفضلِ والسوابق والمناقبِ ما فضلوا فيه سائرَ الأمة.

ويدينون بمحبَّتِهم ونشرِ فضائِلِهم، ويمسكون عما شجرَ بينهم، وأنهم أولى الأمةِ بكل خصلةٍ حميدة، وأسبقُهم إلى كلِّ خيرٍ، وأبعدُهم من كل شرٍّ.

ويعتقدون أن الأمةَ لا تستغني عن إمامٍ يُقيمُ لها دينها ودنياها، ويَدفَعُ عنها عاديةَ المعتدين. ولا تتمُّ إمامته إلا بطاعتِه في غيرِ معصيةِ الله تعالى.

ويرون أنه لا يتمُّ الإيمان إلا بالأمرِ بالمعروف، والنهي عن المنكرِ باليَدِ، وإلا فباللسانِ، وإلا فبالقَلبِ على حسبِ مراتِبه الشرعيةِ، وطرقِه المَرعيةِ.

وبالجملةِ فيرون القيامَ بكل الأصول الشرعيةِ على الوجه الشرعيِّ من تمام الإيمانِ والدين، ومن تمامِ هذا الأصل طريقُهم في العِلمِ والعملِ.

الأصلُ الخامسُ: طريقُهُم في العِلمِ والعَملِ

وذلك أن أهلَ السنة والجماعةِ يعتقدون ويلتزمون أن لا طَريقَ إلى الله وإلى كرامتِه إلا بالعِلمِ النافع والعمل الصالحِ، فالعلمُ النافعُ هو ما جاء به الرسولُ ﷺ من كتاب الله وسنةِ رسولِه ﷺ، فيجتهدون في معرفةِ معانيها والتفقهِ فيها أصولًا وفروعًا.

ويسلكون جميعَ طرق الدلالات فيها: دلالةِ المطابقةِ، ودلالةِ التضمن، ودَلالةِ الالتزام، ويبذلون قُواهم في إدراكِ ذلك بحسبِ ما أعطاهم الله.

ويعتقدون أن هذه هي العلومُ النافعةُ، هي وما تفرعَ عليها من أقيسةٍ صحيحة ومناسبات حكيمةٍ، وكل علم أعان على ذلك أو وازرهُ أو ترتَّب عليه فإنه علمٌ شرعيٌّ، كما أن ما ضادَّهُ وناقضَهُ فهو علم باطلٌ، فهذا طريقهم في العلمِ.

وأما طريقُهم في العملِ فإنهم يتقرَّبون إلى الله تعالى بالتصديقِ والاعترافِ التامِّ بعقائدِ الإيمان التي هي أصلُ العبادات وأساسُها.

ثم يتقرَّبون له بأداءِ فرائضِ الله المتعلقةِ بحقه وحقوقِ عباده مع الإكثارِ من النوافلِ وبترك المحرماتِ والمنهيات تعبدًا لله تعالى.

ويعلمون أن الله تعالى لا يَقبلُ إلا كلَّ عملٍ خالصٍ لوجهِه الكريم، مسلوكًا فيه طريق النبيِّ الكريم، ويستعينون بالله تعالى في سلوكِ هذه الطرقِ النافعةِ التي هي العلمُ النافعُ والعمل الصالحُ الموصل إلى كل خيرٍ وفلاح وسعادةٍ عاجلة وآجلةٍ، والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله على محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.



الرسالة الثالثة

أصول عظيمة

من قواعد الإسلام



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٢-٧].

اللَّهُمَّ صل على محمدٍ وعلى آله وأصحابِه ومن تبعهم إلى يومِ الدين.

هذه قواعدُ وأصولٌ عظيمة من قواعد دينِ الإسلامِ:

۞ القاعدةُ الأولى: الدينُ كلُّه مبنيٌّ على عبادةِ الله وَحدَه والاستعانةِ به وحده.

كما صَرَّحت به هذه السورةُ الكريمةُ، وفي القرآن الجمعُ بين هذين الأمرين في مواضِعَ متعددةٍ؛ كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤]، وغير ذلك مِنَ الآياتِ.

وفي الأحاديثِ عن النبي ﷺ من هذا شيءٌ كثير؛ كقولِه: «**احرِصْ على ما ينفعُك واستَعِن بالله ولا تَعجز**»[1]، «**وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استَعَنتَ فاستعِن بالله**»[2].

وبتتميمِ العبدِ لعبادة الله واستعانتِه به تكمُلُ أمورُه الدينية والدنيويةُ، فعبادة الله أن يقومَ العبد بتوحيدِ الله، وعبوديتِه الظاهرةِ والباطنةِ؛ الماليةِ والبدنيةِ والمركبةِ منهما المتعلقة بحقوقِ الله تعالى، والمتعلقةِ بحقوقِ خَلقِه.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وصححه.

ومن ذلك: القيامُ بالمصالحِ الكلية النافعة للمسلمين في دينِهم ودنياهم، ويكونُ هذا القيامُ مصحوبًا بثلاثةِ أمورٍ: قوةِ الجدِّ، والاجتهادِ بحسبِ ما يستطيعُه العبدُ، وقوةِ الاعتمادِ على الله في تيسيرِ ذلك الأمرِ الذي يُحاولُه العبدُ، مع الثقة التامةِ بالله في تيسيرِه وكمالِ الإخلاص لله؛ بحيث لا يكون الحاملَ له على ذلك غرضٌ خسيس، ولا قصدُ مراءاة الناس وسمعتهم، ولا عصبية وطنية أو قومية أو جنسية، بل الحاملَ له على ذلك إرادةُ رضا الله، وحصولُ ثوابه، ومن ثوابِه ما يترتب عليه من المصالحِ النافعة.

وبهذا المعنى الكليِّ العظيم يتضح لنا أن القيامَ بجميع الأسبابِ النافعة، والقيامَ بما يُتممها ويُكملها هي من أعظم ما يدخل في هذه القاعدةِ، فإن القيامَ بها عبادة لله ووسيلةٌ إلى عبادة الله، فكما يدخلُ في عبادة الله ما أعان عليها من السعيِ والمشي والركوبِ إلى العبادات، فيدخل فيها اكتسابُ الأموالِ من حِلِّها للقيام بالزكوات وواجب النفقاتِ، ولقيام الأعمال النافعة التي لا تقومُ إلا بالأموال.

ويدخل فيها أيضًا تعلُّم الفنون والصناعات العصريةِ والاختراعاتِ التي فيها استعدادُ المسلمين لمقاومة أعدائِهم وللسلامة من شُرورِهم، وذلك بحسب المستطاعِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فكلُّ ما يستطيعُه المسلمون من إعداد القوةِ العقلية والصناعية والسياسيةِ والفنون العَسكريةِ، وما أشبه ذلك فإنه يدخُلُ في عبادة الله وفيما يُعين عليها؛ فإن الجهادَ الذي هو بذلُ الجهد في مقاومة الأعداءِ من أجل العبادات، فما يعين عليه فإنه مِنْهُ.

فبهذا يُعلم أن المسلمين بالمعنى الحقيقي أكملُ الخلق في فعل الأسبابِ النافعة؛ لأنهم يبذلون فيها مَقدورَهم، مستعينين بالله في حصولها، وفي تَكميلِها، وفيما لا يَقدِرون عليه منها، وفي إنجاح أعمالهم، وحصولِ مقاصِدهم، فليس بعد هذا الكمالِ

الذي حثَّ عليه الدين الإسلاميُّ كمالٌ، ولا فوقَه مُرتقًى، حيث يُموه الدعاةُ إلى الإلحادِ أن الدين الإسلاميَّ يثبت العاملين ويُضعف نفوسَهم، وهذا من المكابرةِ والتجرؤ والكذبِ الصُّراحِ بمكان لا يَخفى على من له أدنى مُسكةٍ[1] من عقلٍ.

فإذا تبين أن الدين الإسلاميَّ الصحيحَ يحثُّ على القيام بالأسباب النافعةِ، ويبعث الهمم والعزائمَ بالاستعانة بالله عليها والثقة به في تكميلها ونجاحِها، فكم في الكتابِ والسنة من الأمرِ بفعل الخيرات، وتَرك المنكراتِ، والأخذ بجميعِ الأسباب النافعات، فاعلم أن ههنا طَريقين ذَميمين مُنحرفين في الأسبابِ يَبرأُ الدينُ منهما كل البراءةِ:

أحدُهما: مذهبُ الجبرية القائلين بأن العبدَ مجبورٌ على أفعالِه، وأن حركاتِه الاختياريةَ حركاتٌ اضطراريةٌ بمنزلة حركاتِ الأشجارِ، وأن الأسباب لا تأثيرَ لها في مسبباتها، وأن الله يخلُقُ عندها لا بها، ويوجِدُ الأشياء باقترانها عادةً لا أنها طريقٌ ووسيلة إلى مقاصِدها، وهذا المذهبُ باطل شرعًا وعقلًا:

أما شرعًا: فإن الكتابَ والسنة مملوآن من ذِكرِ إضافةِ الأعمال للعاملين خيرِها وشرِّها، وأنهم هم الذين يَفعلونها طوعًا واختيارًا، لا قسرًا واضطرارًا، ومملوآن من ذِكرِ أن الأسباب بها حصولُ مقاصِدها، وهي الطريقُ الوحيد لسعادة الدنيا والآخرةِ، وأن الكسلَ عنها موجِبٌ للحرمان، والضعفَ فيها داعٍ إلى الخُسران، كما تَقدَّم أن الشرعَ يحث عليها غايةَ الحث مع الاستعانةِ بالله عليها.

وأما بُطلانُ هذا القولِ عقلًا؛ فلأنه من المعلومِ بالضرورة أن أفعالَ العبادِ، بل والحيوانات تقعُ باختيارهم وإرادتهم؛ إن شاؤوا أرادوا وفعلوا، وإن أرادوا تَركوا، وأنه لولا أن العبادَ تقعُ أفعالهم طوعَ اختيارِهم لما كان للأوامرِ الشرعيةِ والعرفية

(١) المسكة: الأثر والبقية.

فائدةٌ، فكيف يُؤمر ويوجَّه الخطابُ إلى من لا قُدرةَ له على أفعاله، وكيف يوجَدُ النهي واللَّومُ على من لا يقدر على ترك النواهي، فهذا معلومٌ فسادُه بالضرورة من الشرعِ وببداهة العقلِ.

وأعظم منه بطلانًا وأشد فسادًا مذهب الطبائعيين في الأسباب، الذين يَرَون الأسبابَ جارية على مقتضى الطبيعةِ ونظام الكونِ، وأنها لا تعلُّقَ لها بقضاءِ الله وقدره، وأن الله لا يَقدِرُ على تغييرِها، ولا مَنعِها، ولا إعانتها، وأهل هذا المذهَبِ معروفون بالخروجِ عن ديانات الرسلِ كلِّهم؛ لأن هذا القول الخبيثَ مبنيٌّ على نفي الإيمان بالله، ونفي ربوبيته، والربُّ في الحقيقة عند هؤلاء هي الطبيعةُ، فهي التي تتفاعَلُ وتتطور وتُحدِثُ الأشياءَ كلَّها، فهؤلاء الملحدون لا يُثبتون لله أفعالًا، ولا يُثبتون أنه يثيب الطائعين بالنعمِ والكرامات في الدنيا والآخرة، ولا يُعاقبُ العاصين بالنِّقَمِ في الدنيا والآخرة، وينفون معجزاتِ الأنبياء الخارقة للعادة كلَّها وكراماتِ الأولياء، ويقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا المذهب الذي هو أبطلُ المذاهب، الذي تنزَّه عنه اليهودُ والنصارى وكثيرٌ من المشركين -فضلًا عن الدين الإسلاميِّ- قد اغترَّ به بعض الكتاب العصريين وأرادوا من سَفاهتِهم وجراءتِهم العظيمة أن ينسبوه إلى دينِ الإسلامِ، ودينُ الإسلام وسائرُ الأديان بريئة من هذا القولِ الخبيث، فهو في شِقٍّ وأديان الرسلِ في شق آخرَ؛ الرسل والشرائعُ تثبت ربوبيةَ الله، وأفعالَه، وقضاءه، وقدرَه، وانقيادَ العالم العلوي والسفلي لإرادةِ الله وقدرتِه، وهؤلاء يُنكرون ذلك، والرسلُ والشرائعُ تثبت أن الأسبابَ والمسببات محل حكمةِ الله، وأن الله قد جعلها على نظامٍ حكيم دالٍّ على كمال حكمة الله وانتظامِ أمرِ الدنيا والآخرة، وأنه لا يمكن أحدٌ أن يغيرَ سُنَنَ الله ولا يُحولها، ومع هذا فإنَّها تابعةٌ لمشيئة الله وإرادته، ولا يستقلُّ سبب منها إلا بإعانتِه،

وقد يَمنَعُ بعضَ الأسبابِ، ويغيرُ بعضَ الأسباب؛ ليرى عبادُه أنه هو المتصرِّف المطلَقُ، فقد أوقعَ الله الأخذات الخارقةِ بالمكذبين بالرسلِ، وأكرمَ أنبياءه وأولياءه بالنجاة في الدنيا والآخرة؛ فأهلَك قومَ نوحٍ بالطوفان ونجَّى نوحًا ومن معه من المؤمنين، وجعلَ النار بردًا وسلامًا على إبراهيمَ، وأعطى موسى من الآياتِ؛ كالحية، والعصا، وفلقَ البحر ما فيه أكبرُ عبرةٍ بأنه المتصرف المطلَق، وجَعلَ عيسى يُبرِئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذنه.

وأعطى محمدًا ﷺ من الكراماتِ والخوارقِ الكونية ما لم يُعطِ أحدًا من الرسلِ؛ فانشقَّ له القمر، وسلَّم عليه الشجرُ والحجر، ونَبعَ الماء من بين أصابِعه، وأسقى الخلقَ الكثيرَ من الماء القليلِ، وأشبعَ الخلقَ العظيمَ من الطعامِ اليسير، وأبرأَ الله بدعواته أمراضًا كثيرة، وأنزل الله الغيثَ بدعوته في قضايا كثيرةٍ، وعَصمَهُ الله من الناس ونصره في مواطِنَ كثيرةٍ نصرًا خارقًا للعادةِ، ونصرَ الله أمته في مواطِنَ كثيرةٍ، وأكرمَ الله الرسلَ والأولياء في أمورٍ خارقة للعادة. وهذه الأمورُ كلُّها مما ينكرها أهلُ هذا المذهبِ الخبيثِ؛ فعُلِمَ أنه منافٍ للإيمان بالرسل من كلِّ وجه، وأن من زَعمَ أنه يبقى مع صاحِبه من الإيمان شيءٌ فهو مَغرورٌ مُكابرٌ.

وأما بطلانُه عقلًا وفطرةً: فإن العُقلاءَ كلَّهم مُطبقون على انقيادِ العالم العلوي والسفلي إلى إرادة الله وقدرتِه، ولم يُنكِر ذلك أحدٌ إلا من جحد الله، ولم يُثبت وجودَه، وهؤلاء قد عُلمَ أن عقولهم قد مرجت[1]، وأنكروا الأمورَ المحسوسة التي لا يَزالُ الله يُريها عباده في جميعِ الأوقات.

---

(١) مرجت: فسدت واضطربت.

ومن فروعِ هذا المذهبِ: الإنكارُ بأن الله يُنقذ المضطرين، ويُجيب دعوات الداعين، ويُغيثُ اللهفات، ويَكشفُ الكربات، وإنما هي عندهم الأسبابُ تتفاعَلُ وتتغالب؛ فجَحَدوا ما عُلِمَ بالضرورة من شرائعِ الأنبياءِ، وما أقرت به الخليقةُ، واعترفوا به، وفطروا عليه؛ وبذلك حَكَموا لأنفسهم بمفارقةِ العقلِ والدين.

ومن فُروعِ ذلك: إنكارُ قصة آدم وإهباطِه إلى الأرض، وخلقِ الله إياه وإيحائِه إليه، وجميع ما تحتوي قصتُه مع زوجه، ومع إبليسَ، وإنكارُ أنه أول الإنسان، وزَعَموا أن الإنسانَ في أول أمرِه مكث مدة طويلةً لا يتكلَّمُ ولا يعبر عما في ضميرِه، ثم انتقَلَ من ذلك الطورِ البهيمي إلى طورِ الإشارات دون التكلمِ باللغات، ثم مكثَ ما شاءت الطبيعةُ -لا ما شاء الله- فتطور وصارَ يتكلم؛ فجَحدوا ما جاءت به الرسلُ، ونزلت به الكتب، واتبعوا ما تخَرَّصَه[1] المعطلون الملحدون الذين بَنَوا نظرياتِهم على تخرصاتٍ لا تنبني على العلومِ المعقولة، ولا العلومِ المحسوسة.

ومن فروعِ هذا المذهبِ الخبيثِ: أن هذا العالم لم يَزَل ولا يزالُ، وأن الله لا يُغيِّره، ولا ينقل العبادَ من هذه الدار إلى دارِ الجزاء، فأنكروا مقصودَ ما جاءت به الكتبُ السماوية والرسلُ الكرام، وما دلت عليه الأدلة العقليةُ الصريحة التي لا تَقبلُ ريبًا ولا إشكالًا، فإن الطبيعةَ خَلقٌ من خلقِ الله، فهذا الذي خلقها وطبعها ودبَّرها وسخَّرها، فتبًّا لمن جعلَها ربَّهُ وإلهه، وهو يشاهدُ من آيات الله في الآفاقِ وفي الأنفسِ أكبرَ الأدلة والبراهين على ربوبيةِ ربِّ العالمين، وأن جميع الموجوداتِ منقادةٌ لإرادته مُصرَّفةٌ بقدرته.

(١) تخرصه: قالوه بالظنون والأوهام.

فبهذا التفصيلِ يتضحُ أن هذا القولَ الأخيرَ ليس مذهبًا لأحدٍ من المعترفين بالأديان، وإنما هو مأخوذٌ عن زنادقةِ الفلاسفة القائلين بقِدَمِ العالَمِ، وأن الله لا يَقدِرُ على شيءٍ ولا يَعلمُ شيئًا من الجزئيات، ومذهبُ هؤلاء معروفٌ أنهم لا يُصدقون برسالةِ أحدٍ من الرسل، ولا يُقرون بشيء من الكتبِ.

وأما المذهبُ الذي حكيناه عن الجبريةِ -مع بُطلانِه- فأهله أحسنُ بكثيرٍ كثير من أولئك؛ فإنهم يَنتَسبون إلى الدينِ، ويُعظِّمون الرسولَ، ولكن غَلَوا في القضاءِ والقَدرِ، فسلبوا العبدَ قدرَتَه؛ ضلالًا منهم وجهلًا مع إيمانِهم بالله، وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليومِ الآخرِ، والقدرِ؛ خيرِه وشرِّه، لكنهم سَلَّطوا أعداء الرسلِ على المسلمين؛ حيث نَسَبوا مذهَبَهم للدين، والدينُ بريءٌ منه، فحمل عليهم الفلاسفةُ وسفَّهوا رأيَهم في هذا، وظنوا أنهم بذلك انتصروا على الدينِ، ولكن الدين الحقيقيَّ يُخطِّئ هؤلاء ويضللهم، ويحثُّ العباد على القيامِ بالأسباب النافعةِ في الدين والدنيا، ويَحُضُّهم على الاجتهادِ فيها وعلى الاستعانةِ بالله وبحوله وقوته، وكذلك الدين الحقيقيُّ والعقل الصحيحُ يخبر أن ضلالَ هؤلاء الفلاسفة المعطلين في الأسبابِ أفظعُ من ضلالِ الجبرية؛ حيث جعلوا الأسبابَ مستقلةً منقطعة عن قضاءِ الله وقَدرِه، وأنكروا الأصولَ السابقةَ العظيمةَ لهذا الأصلِ القبيح.

۞ القاعدةُ الثانيةُ: الدين الحقُّ هو ما جاءَ به الرسولُ ﷺ من كتابِ الله وسنةِ رسوله.

وهذا الأصلُ الكبير الذي صرَّحَ به الكتابُ والسنة في مواضعَ كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]،

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

والرسولُ في مواضعَ كثيرةٍ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] الآية، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥-١٦]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] الآية.

فهذه الآياتُ الكريماتُ وأضعافها وأضعاف أضعافِها دلت دلالاتٍ صريحة أنه يتعين على الخلقِ اتباعُ ما أنزل الله على رسولِه من الكتابِ والحكمة، وأن الهُدى والفلاحَ والسعادة والنجاةَ في الدنيا والآخرة في اتباعِ ذلك، وأن في ضدِّ ذلك

الضلالَ والهلاكَ والشقاءَ في الدنيا والآخرةِ، وأن الصراط المستقيمَ الذي من سلكَهُ في عقائِده وأقوالِه وأفعاله وشؤونه الدينية والدنيويةِ هو سبيلُ الله الذي شرعه على لسانِ رسولِه محمد ﷺ من الإخباراتِ والأوامر والنواهي، وأن وظيفةَ المكلفين أن يُصدِّقوا كلَّ ما أخبر الله به ورسولُه ويطيعوا الله ورسولَه في امتثال الأمرِ واجتناب النهي، وأن السعادةَ والنجاة في هذا التصديقِ وهذه الطاعة، والشقاءَ والعذابَ في تكذيبِ الأخبار والتولي عن الأمرِ والنهي، وأن من آمن وعمِلَ صالحًا وسَلكَ طريقَ الرسول فهو من أولياءِ الله وحزبِه، ومن لم يؤمن بالله ورسولِه ويعمل صالحًا فهو من أعدائِه وحَربِه، وأنه يتعين سلوكُ طريقِ المنيبين إلى الله في ظاهِرِهم وباطنِهم، لا طريقِ الغافلين ولا المعرضين والمعارِضين الصادِّين عن سبيلِ الله.

فهذه النصوصُ ونحوُها صريحةٌ أنه يجب أن يكون الأصلُ الذي إليه مرجع المكلفين كتابَ ربِّهم وسنةَ نبيهم، وأن جميعَ المقالاتِ والأحوالِ والأعمالِ والعلوم توزن بهذا الأصلِ، فما وافقه فهو الحقُّ والصدق والصواب، وما خالفه وناقَضَه فهو الضلال والشقاءُ، وأن من جعلَ كلامَ أعداء الرسلِ هو الأصل، وغيرَه ما وافقه قَبِلَه، وما خالفَهُ رَفضَه، فهو محادٌّ لرسلِ الله، منابذٌ لدين الله، وأن في مقدمة هؤلاء الملحدين مَن دَعَوا إلى رفضِ كل قديمٍ وجعلوه سُلَّمًا لهم وطريقًا لرفضِ الدين وعلومِه وأعماله، وأن هذه دعايةٌ إلحاديةٌ، القصدُ منها الدعايةُ إلى نبذ الدين واعتناقِ طريق الملحدين، وأن أهلَ العقول الصحيحةِ والألباب السليمة هم الذين يَدعون إلى رَفضِ الشرورِ والفسادِ وأنواعِ الظلمِ، وإلى الحث على الخير والصلاحِ والإصلاحِ.

فهذا هو الأصلُ الذي يوافقُ عليه جميعُ العقلاءِ أهلُ الأديان وغيرُهم، وحيث كان هذا هو الميزان الذي لا يُمكن كلَّ أحدٍ إلا الاعترافُ به حتى المنصِفين من الأجانِب، فعلينا وعلى الخَلقِ كلِّهم أن يَعرضوا القديم والحديث على هذا الأصلِ

الجليل، وحيث عُرِضَ على هذا الأصلِ القديمُ والحديثُ وُجِدَ ما دل عليه الكتابُ والسنة هو الخيرُ وهو الهدى والسعادة؛ لأنه يدعو إلى الخيرِ، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤][1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، فما ثَمَّ صلاحٌ وخير ونفعٌ ديني ودنيوي إلا والكتابُ والسنة قد حثَّ عليه، ورَغَّب فيه، وبَيَّن الطريقَ الموصلة إليه حتى الفنونُ والاختراعاتُ والصناعات الحادثةُ التي فيها نفع للعباد، وتقيهم من الشرور والفسادِ، وما من شر وضرر وفسادٍ إلا وقد نهى الدين الإسلاميُّ عنه سواء كان ذلك متقدمًا أو متأخرًا.

وأما تَعَنُّت الملحدين الماديين بوجوبِ رفضِ القَديمِ مطلقًا واعتناقِ الجديد مطلقًا، فهذا أصل لا يمكن أن يوافِقَ عليه أحد من العقلاء؛ لأن القديمَ منه طيبٌ وخبيث، والجديدَ منه طيبٌ وخبيث، فالطيبُ يجب قبولُه مطلقًا والخبيثُ يجب رفضُه مطلقًا، والطيب الذي في الحديثِ إنما استُفيدَ مما دلَّ عليه القديم من علوم وأخلاق وأعمالٍ.

فأصلُ الخيرِ ومنبعُه ما جاءت به الرسلُ، ونزلت به الكتبُ.

ويُقالُ لأهل هذه الدعاية الخبيثة: هذه دعايةٌ لا يمكن أن يوافِقَ عليها أحد حتى أنتم لا تُوافِقون عليها، فإنكم تَقبَلون ما نقلتُم عن أئمَّتِكم وتحثون على ذلك سواءٌ كانوا من القُدماءِ أو من الآخرين، فأصلٌ لا يوافق عليه أحدٌ من الخلق يجب أن نرفُضَه، ونرجِعَ إلى الأصول الدينية والأصولِ العقلية:

---

(١) بعده في المخطوط: «وأن الله يحب المصلحين».

أما الأصولُ الدينية: فقد أريناكُم بعض ما دلَّ عليه أشرفُ الكتب، وهو القرآن بوجوبِ اتباع كتاب الله، وما دلَّ عليه ما جاء عن رسولِ الله وأنه الخيرُ والحق والهدى، وما سواه شرٌّ وضلال وشقا.

وأما الأصولُ العقلية: فهَلُمَّ فلنَتحاكَم إلى هذه الأصول التي لا يُمكن عاقلًا أن يقدَحَ بها، ومن قدحَ فيها فهو مكابرٌ نتحاكم إلى الطيبِ والخبيث، فكلُّ طيب من العقائِدِ والأخلاقِ والأعمال والمقاصدِ والوسائل فعلينا أن نقبَلَهُ، وكل خبيثٍ من ذلك فعلينا أن نرفُضَه.

وهَلُمَّ فلنَتحاكم إلى الخيرِ والصلاح والإصلاحِ، لا إلى الشر والفسادِ، فكل خير وصلاح وإصلاحٍ فعلينا أن نقبله، وكل شر وفسادٍ فعلينا أن نتركَه.

هَلُمَّ فلنتحاكم إلى ما يُرقي الخَلق ويُعليهم في دينهم ودُنياهم، وإلى ما يُنزلهم ويحلِّلُ أخلاقَهم وآدابهم في دينهم ودنياهم فنقبَلُ الأول ونرفُضُ الثاني.

هَلُمَّ فلنتحاكم إلى ما فيه نفعٌ ديني ودنيوي، نفعٌ حقيقي فنقبله، وما فيه ضرر ديني ودنيوي فنرفُضُه.

هَلُمَّ فلنتحاكم إلى ما آثاره جليلةٌ وعواقبه حميدةٌ في الدنيا والآخرة فنقبلُهُ ونُقبِلُ عليه، وإلى ما آثارُه ذميمة وعواقبه وخيمةٌ فندعه ونرفضه.

هَلُمَّ فلنتحاكم إلى العدلِ وأداء الحقوقِ في حقوق الله وحقوقِ عباده فنقبله وندعو إليه، وأما الظلمُ وعدمُ أداء الحقوق الواجبةِ فلندعه ونتركه، فهذه الأصولُ العقلية والشرعية وما أشبَهَها لا يُدعى أحدٌ للتحاكم إليها فيأبى إلا دَلَّنا على سفاهتِه وحُمقِه ومكابرته، فالدين الإسلاميُّ لا يأبى التحاكُمَ في علومه وأخلاقِه وأعماله

وآدابه كلِّها إلى قضايا العقول التي يتفق العُقلاءُ على صحتها وسلامَتِها، بل هو الذي دعا الخلقَ إليها وحثَّهم عليها، فكيف يأبى أن يحتكِم إلى ما تَقتَضيه أصولُه وأسسه.

وأما إطلاقُ المحاكمة إلى القديمِ والحديث فهذا كما تقدَّم لا يُوافق عليه هؤلاء؛ لأنها قضية مختلة متزعزعةٌ عند الناصرين لها؛ لأنهم يتناقضون في رفضٍ وفي قَبولِ كل حديثٍ، فمنه أشياءُ يقبلونها، ومنه أشياء يَرفُضونها من وجهٍ دالٍّ على فسادِها من أنفسهم وحججهم.

ووجهٌ آخرُ وهو أنهم إذا كانوا يَرفضون القديمَ ويرحبون بالجديدِ فهذه قضيةٌ أولُ من يحظى بإبطالها واصِفوها، وذلك أنهم إذا أسَّسوا لهم أمورًا يجرونها ويرونها هي الحق الذي يجب تقديمُه ونصره، كانوا إذا جاء مَن بعدَهم فإما أن يتَّبِعوا ما أسسه الأولون فينتَقِضُ أصلُهُم، وتصيرُ الأمور الحادثة عند النشءِ الحديثِ لا يعبأ بها، وإنما يحافظ على ما قاله الأولون، وهذا بعينِه أكبرُ برهان على نفيها، وأن تسلسُلَ هذه القاعدةِ عند النشءِ الذي بعدهم فيوجبون رفض ما قاله هؤلاء واعتناقَ الأمورِ المتجددة لم يثبت بأيدي الناس حق يكون له الإثبات، بل ما أثبتهُ هؤلاء نفاهُ الآخرون، وما نفاه هؤلاء أثبته آخرون؛ فصاروا في أمرٍ مَريجٍ[1] متهافتٍ مختلِّ الأصولِ والفروع، هذا من جهة ميزان هذه القضية الجائرة في عقولِ قائليها.

وأما وزنُها في الشرائعِ الدينية وفي العقول الصحيحةِ فهي أرذلُ وأخسُّ من أن يقام لها وزنٌ، وإنما هي أقوالٌ صدرت من سفهاءِ الأحلامِ، ضعفاء العقول أرادوا بها التَّمويهَ على الأغرارِ الذين لا قَلبَ لهم يستَفتونَه، ولا ألبابَ صحيحةً يَزِنون بها الأمورَ والقضايا، وإنما الموازين التي لا يَقدَحُ فيها أحدٌ من العقلاء فتلك الأصول

---

(١) مريج: مختلط ومضطرب.

التي أشرنا لها وما أشبهها فهي التي من قالها صدقَ قولُه، ومن حكم بها عدلَ حُكمُه، ومن استقام عليها هُدي إلى صراط مستقيم، وهي الأصولُ التي لا يمكن نقضُها وتجري مع الزمان والأحوالِ لا تتغير؛ لأنها حقائقُ ثابتة، صالحةٌ للخليقة، موضوعة لنفعهم.

أما المسلمون فليس عندهم أدنى رَيبٍ بأن دينَهم هو الحقُّ الذي لا تُعرف الحقائقُ إلا به، وهو الدين الذي رسمَ للخلق حقائقَ الأشياء ودلهم عليها وأرشدَهم إلى منافِعِها، ولا يستَريبون أن جميعَ أصولِ دينهم وفروعه وظاهره وباطنه إذا وُزِنَت بتلك الموازين الصحيحة ظهَرَ نورُها وجلالها وكمالها، ووجوب تقديمها على كل شيء.

وأما المنحرفون عن الدين فربَّما يصيرُ عندهم في هذا المقامِ مغالطات، ويدعون دعوتهم مجردةً عن البرهانِ أن مذاهبهم هي الموافقةُ لتلك الأصولِ، فعند ذلك يُقال: ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وبينوا الطريقَ التي يُعرف بها ما ادعيتم، ونحن نعلم علمًا مبنيًا على البراهين والحقائق أنه ليس لهم طريقٌ صحيحٌ إلى تحقيقِ كل قولٍ نابذوا[1] به الدين، ثم نقولُ على طريق التقولِ في مقامِ المناظرة: إن الدعاوي إذا تعارَضَت، والأقوالَ إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان: الدين الإسلاميُّ والعقل الصحيحُ.

أما الأولُ: فإن كان المجادلُ بالباطلِ يدعي أنه مسلمٌ فإنه يقال له: المسلمُ بإجماعِ المسلمين لا يَصيرُ مسلمًا حتى يقدم ما جاء به الرسولُ من كتاب الله وسنة رسولِه على ما قاله الناس، فعلينا أن نتَّبع ما جاء في الكتابِ والسنة، وما أشكلَ عليك هل هو

(١) نابذ: خاصم وعادى.

موافقٌ أو معارض، وضحنا لك من أدلة الشريعةِ ما يوجب لك الرضوخَ والانقيادَ التام، وربما كان فهمك قاصرًا عن دلالات النصوص؛ فيبين له دخولَ جميع المنافعِ والمصالحِ في نصوص الشرعِ، فإن انقادَ لذلك فهو مسلمٌ، ويصيرُ طريقُ العقلِ مؤيدًا لطريق الدين والعقل.

أما الدين: فإنه يُبيَّن له الأدلةُ والبراهين العظيمة التي لا تقاوم ولا تصادم على نبوة محمد ﷺ، وعلى الوحي الذي جاءَ به من عند الله وهي أدلةٌ في أعلى ما يكون من القوةِ والوضوحِ والكثرة. وآيات نبوته ﷺ وبراهينُها متنوعة؛ أخلاقُه العظيمة التي أقسمَ الله بها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، بحيثُ إذا وضح بعضُها عُرِف أنه لا كان ولا يكون أحد من عظماء الرجالِ يدانيه في الكمال والفضلِ والخصال الحميدة التي يَستحيلُ معها أن يكون مُتقَوِّلًا[١]، بل تدلُّ على أنه أصدقُ الخلق وأبرُّهم وأتمُّهم في كل فضل وكمال، وما أمر به ونهى عنه وشرعَه فإنه مُحكمٌ منتظم، لا يأمر إلا بكلِّ معروف شرعًا وعقلًا، ولا ينهى إلا عن كل منكر شرعًا وعقلًا، لا تجد في أحكامه اختلالًا ولا سفهًا ولا عبثًا ومنافاةً للحكمة.

والقرآن العظيمُ الذي جاء به من عند الله فيه تِبيان كلِّ شيء وهدى ورحمة، وفيه من العلومِ والحقائق العظيمةِ ما لا يمكن أن يأتيَ عليه الوصفُ، لا يمكن أن يأتي علم صحيحٌ ينقض ما جاء به بوجه من الوجوه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فيه علومُ الأولين والآخرين، فمجردُ نظرِ المنصف إلى ما جَبَلَ الله رسولَه ﷺ عليه من الأخلاق، وإلى أحكامِ دينه وكماله، وإلى عظمة القرآن وما احتوى عليه من المعجزاتِ، يضطرُّهُ إلى تصديقِه، وإلى الخضوعِ

(١) متقول: كاذب مفتر.

لدينه وشرعِه، وإذا عُلِمَ أنه رسولُ الله وأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى؛ تعيَّنَ قبول ما جاء به، وأن يكون هو الأصلَ الذي تُعرَض عليه الأقوالُ والمذاهب؛ فما وافقه فهو الحقُّ، وما خالفه فهو الباطلُ؛ لأنه إذا عُلِمَ أنه رسولُ الله حقًّا كان ما جاء به حقًّا، لا يمكن أن يعارَض الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

فإن أبى المناظِرُ الانقيادَ إلى شيءٍ مما تقدَّم فعلى وجهِ التنزل في المناظرةِ الدالِّ على غاية الإنصافِ وإقناع الخصمِ.

فهَلُمَّ إلى التحاكم إلى العقولِ الحرة المعروفة بالاعتدالِ التي لم تتلوث بالتعصباتِ ولا بالقصودِ الفاسدة والأغراضِ السيئة التي ليس لها قصدٌ إلا طلب الحقيقةِ والتسليم للحقائق، ولا يَستريبُ من وقف على أصول الدين وتعاليمه العالية والأخلاقِ السامية وآدابه الرفيعةِ أنه هو الذي يكفل سعادةَ الدنيا الحقيقيةِ التي تُعَدُّ سعادةً كما كان كفيلًا بسعادةِ الآخرة، ولا يَعرفُ ذلك حقَّ المعرفة إلا من تتبع الحقائقَ الدينية وما تَسْمُو إليه من رقي القلوبِ والأرواح والأخلاق، وما يُعين على ذلك في المادة الماليةِ والصناعية والسياسية وما يُقوي ذلك من الأمورِ المعنوية؛ وبذلك يَعرفُ معرفةً على وجه البصيرة التي لا تردُّدَ فيها ولا رَيبَ أنه يتعينُ على الخلقِ اتباعُ ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والسنة عقلًا، كما تعين ذلك شرعًا وتقدمت الإشارةُ إلى بعض ما دل على ذلك من النصوصِ، وإنما قلنا ذلك وتنزَّلنا هذا التنزلَ الذي لا يُبقي لمبطلِه شبهةً؛ لأنه في هذه الأوقات طَمَّ الإلحاد، وفَشَت دعايته بين المسلمين، وصارَ يدعو إليه الأجانبُ ويدعو إليه من تسمى بالدين؛ إما نفاقًا وخداعًا، وإما أن يكون صنيعةً لغيرِه وأجيرًا، وإما أن يكون ليس له بصيرةٌ؛ سمع الناس يقولون شيئًا فقاله، وهذا كثيرٌ في أهل الصحف الذين لا بصيرةَ لهم في

الدين، ولا يبالون بسقوطِ صحفهم عن الاعتبارِ الديني، بل والأدبي، ومن دعا بالطريقةِ التي شرحناها لم يَلقَ لدعوته معارضًا أصلًا، اللهم إلا لمن عُرفوا بالمكابرات، وجَحدِ الحقائق والمغالطات، التي لا تُسمِنُ ولا تغني ولا تفيد شيئًا.

ولنذكر صورةَ مناظرةٍ جرت بين رجلين كانا رَفيقَين، وكانا مُسلمين يدينان بالدين الحقِّ علمًا وعملًا، فغابَ أحدُهُما عن صاحِبِه مدةً، ثم التَقَيا فإذا هذا الغائِبُ قد تغيرت أحوالُه وأخلاقه، فسأله صاحبُه عن ذلك، فإذا هو قد تغلَّبت عليه دعايةُ الملحدين الذين يَدعون لنبذِ الدين ورَفضِ ما جاء به سيدُ المرسلين، فحاورهُ صاحبه وقلبه لعله يرجِعُ عن هذا الانقلابِ الغريب، فعرف أن هذه علةٌ ومرض تفتقر إلى استئصالِ الداء، وإنزال الدواءِ على الداء، وأن ذلك متوقِّفٌ على معرفةِ الأسباب التي حولته، وإلى تمحيصِها، وتخليصِها، وتوضيحِ مرتبتها، ومقابلتِها بما يضادها ويقمعها، فقال له مستكشفًا عن الحامِلِ له على ذلك: ما هي يا أخي الأسبابُ التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نَبذِ[1] ما كنت عليه، فإن كان خيرًا كنت أنا وأنت فيه شَريكين وإلَّا كان غير ذلك، فأعرِفُ من عقلك وأدبك أنك لا تَرضى أن تُقيمَ على ما يضرُّك ويثمر لك الثمرات الرديئة. فقال له: لا أُخفيك العِلمَ أني قد رأيتُ حالة المسلمين حالةً لا يَرضاها ذوو الهممِ العالية؛ رأيتُهم في ذلٍّ وخمول وأمورهم مدبرة وأحوالهم سيئة، ورأيت في الجانبِ الآخر هؤلاء الأجانبَ قد تَرَقَّوا في هذه الحياة، وتفننوا في الفنون والمخترعاتِ العجيبةِ المدهشة والصناعاتِ المتفوقة، فرأيتُهُم قد دانت لهم الأمم، وخَضَعَت لهم الرقابُ، وصاروا يتحكمون في الأممِ الضعيفة بما شاؤوا، ويعدونهم كالعَبيدِ والأُجراءِ وأقل من ذلك، فرأيت منهم العزَّ الذي بهرني، والتفنن الذي أدهشني، فقُلت في نفسي: لولا أن هؤلاء هُمُ القوم،

(١) نبذ: طرح وترك.

وأنهم على الحقِّ، والمسلمون على الباطِلِ ما كانوا على هذا الوصفِ الذي ذكرت لك، فرأيت أن سلوكي سبيلَهم، واقتدائي بهم خيرٌ لي وأحمدُ عاقبةً، فهذا الذي صيرني إلى ما رأيت.

فقال له صاحبُه حين أبدى له ما كان مستورًا: إذا كان هذا هو السببَ الذي حوَّلك إلى ما أرى فهذا يا أخي ليس من الأسبابِ التي يَبني عليها العُقلاءُ وأولو الألبابِ عقائِدَهم وأخلاقَهم وأعمالهم.

أما تأخُّرُ المسلمين فيما ذكرت فليس ذلك من دينِهم، وقد علِمتَ وتيقنت أن دينَ الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاحِ، والاستعدادِ بالقوة المعنوية والقوةِ المادية من كلِّ وجه إلى قوة المسلمين ومقاومتهم لأعدائِهم، وإلى السلامة من كلِّ أضرارهم وهو لا تزال تَعاليمه وإرشاداتُه قائمة لدينا تنادي أهلَها هلموا إلى جميعِ الأسباب النافعة التي تُعليكم وتُرقِّيكم في دينكم ودنياكم، أفبِتَفريطِ أهلِ الدين تحتَجُّ على الدين؟! أليس هذا التفريطُ منهم يوجِبُ على أهل البصائِرِ منهم أن يكون خيرُهم ونشاطهم وجهادُهم الأكبر متضاعفًا؛ لينالوا المقامات الشامخةِ، ويبتعدوا عن الهوةِ العميقةِ؟!

أليس القيامُ التامُّ والجهادُ من أفرض الفروض وألزمِ اللوازمِ في هذه الحال، فالجهادُ في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين له فضلٌ عظيم يفوقُ سائر العبادات، فكيف إذا كانوا في هذه الحالِ التي وصَفتَ؟! فإن الجهادَ لا يمكن تَعبيرُ المعبرين عن فضائِله ومناقبه؛ فإنه في هذه الحال يكون الجهادُ قسمين:

قسمٍ منه فيه تَقويمُ المسلمين، وإيقاظ هممهم، وبعث عزائِمِهم، وتعليمهم العلومَ النافعة، وتهذيبهم بالأخلاقِ الراقية، ولعل هذا أشقُّ النوعين وأفضلهما.

وقسمٍ فيه **مقاومة الأعداء**، وإعدادُ العدة القوليةِ والفعلية والسياسية والداخلية والخارجية لمقاومتِهم ومُنازَلتِهم في ميادين الحياةِ، أفحينَ صارَ الأمرُ على هذا الوصف الذي ذَكَرت وصار الموقِفُ حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخَلَّفُ مع الجبناء والمخلفين، فكيف مع ذلك تنضَمُّ إلى حزب المحاربين؟! لا تكن يا أخي أرذَلَ ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧]، قاتِلوا لأجل الدين، أو ادفعوا لأجلِ الرابطةِ القوميةِ، فأعيذك يا أخي من هذه الحالةِ التي لا يرضاها أهل الدياناتِ، ولا أهلُ النجداتِ والمروءات، فهل ترضى أن تشارِكَ قومَك في حالِ عزِّهم وقوة عددهم وعديدهم، وتُفارقَهم في حالِ ذلهم ومصائبهم، وتخذُلَهم في حالةٍ اشتدت فيها الضرورةُ إلى نصرة الأولياء وقَمعِ عدوان الأعداء؟! فهل رأيت يا أخي قومًا خيرًا من قومِك ودينًا خيرًا من دينِك؟!

فقال ذلك المنقَلِب المنصوح: الأمرُ كما ذَكَرتُ لك، ونفسي تَتوقُ إلى أولئك الأَقوامِ الذين أتقَنوا الفُنونَ والصناعات، وألَّفوا السياسات والحضارات، وترَقَّوا في هذه الحياةِ.

فقال له صاحبه وهو يُحاورُه: أرفضت دينًا قيمًا، كاملَ القواعد، نَيِّر البرهان، يدعو إلى الخيرات، ويحثُّ على طرق السعادةِ والفلاح، ويقولُ لأهله: هلُمُّوا إلى الفلاحِ والنجاح. دين مبني على الحضارات الراقية الصحيحةِ التي بنيت على العدلِ والتوحيد، وأَسَّست الرحمة والحكمة والشفقة وأداءِ الحقوق، وشَمِلَت بظلِّها الظليل وخيرِها الطويلِ وإحسانها الشاملِ وبهائها الكاملِ ما بين المشارق والمغاربِ، وأقر بذلك الموافق والمخالفُ؟! أتتركها راغبًا في حضاراتٍ ومدنيات مبنيةٍ على الكفر والإلحادِ، مؤسسةٍ على الطمعِ والجشع وظلم العباد، فاقدةٍ لروح الإيمان ورحمته، حضارةٍ ظاهرها مزيفٌ، وباطنها خرابٌ، وتخالها تعميرًا للوجودِ وهي في الحقيقة

مآلها الهلاك والتدمير؟! ألم تر آثارَها في هذه الأوقاتِ، وما جلبته للخلقِ من الهلاك والفناءِ والآفات؟! فهل سمع الخلقُ منذ أوجدَهم الله لهذه المجازِرِ البشرية نظيرًا ومثيلًا؟! فهل أغنت عنهم مدنيتهم وحضارَتُهم من عذابِ الله من شيءٍ لما جاء أمرُ ربِّك، وما زداتهم غيرَ تتبيب[1]؟! فلا يَخدَعَنَّك يا أخي ما ترى من المناظِرِ والزخرفة والأقوالِ المموهة والدعاوي الطويلة العريضةِ، فانظر إلى بواطِنِ الأشياءِ، ولا تغرنك الظواهرُ، وتأمل النتائج الوخيمةَ، فهل أسعَدَتهُم هذه الحضارةُ في دنياهُم التي لا حياةَ لهم يرجون غيرَها؟! ألم ترَهُم ينتَقِلون من شرٍّ إلى شرور، وأنهم لا يَسكنون في وقتٍ إلا وهم إلى شرورٍ فظيعة يتحفَّزون؟!

ثم هب أنهم مُتِّعوا في حياتهم ومتعوا بالعزِّ والرياسات ومظاهرِ الحياة، فهل إذا انحزتَ إليهم وواليتهم يُشرِكونك في حياتِهم ويَجعلونَك كأنفُسِهم؟! كلا والله، إنهم إذا رَضوا عنك جَعَلوك من أخسِّ خُدامِهم وأقذرِ أُجرائِهم، وآية ذلك أنك في ليلك ونهارِك تكدَحُ في خدمتِهم، وتتكلَّمُ وتجادل وتخاصمُ على حسابِهم، ولم نَرَهم رَفَعوك حتى ساووا فيك أدنى قومِهم وبني جِنسِهم، فالله الله يا أخي في دينِك، والله الله في مروءتِك وأخلاقِك وأدبك، والله الله في بقية رمقِك، فالانضمامُ إلى هؤلاء والله هو الهلاك.

فلما سَمِعَ هذا الكلامَ، وتأمَّلَ جميعَ الطرق والوسائل التي تنالُ بها الأغراض الصحيحة من أولئك الأقوامِ فإذا هي مسدودة؛ عَرفَ أنه في محنته هذه من جملة المغرورين، وأن الواجبَ عليه متابعةُ الناصحين، وأن الرجوعَ إلى الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة خيرٌ من التمادي على الباطلِ الذي يحتوي على الضررِ المبين، فقال لصاحبه: كيف لي بالرُّجوعِ؟! وأنى لي وقد أظهَرتُ الانحياز إلى أولئك والنزوعَ؟!

---

(١) تتبيب: تخسير وإهلاك.

فقال له صاحبه: ألم تَعلَم أن من أكبرِ فضائِل الإنسانِ أن يتبع الحقَّ الذي تبين له ويدعَ ما هو فيه من الباطل، وأن الخطأ والزلَلَ قلما يسلمُ منه بشر؟! ولكن الموفَّقَ هو الذي إذا وقعَ في المهالِك طلب الوسيلةَ والطريق إلى كل سبب يخلصُه منها، وأن من نعمة الله على العبدِ أن يُقيِّض[1] له الناصحين الذين يُرشِدونه إلى الخيرِ، ويأمرونه بالمعروفِ، وينهونه عن المنكرِ، ويَسعون في سعادتِه وفلاحِه، ثم من تمامِ هذه النعمة أن يوفَّق لطاعتِهم، ولا يتَشَبَّه بمن قالَ الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

واعلم أنه ربَّما كان الإنسان إذا ذاق مذهبَ المنحرفين وشاهدَ ما فيه من الغي والضلالِ، ثم تراجعَ إلى الحق الذي هو حبيبُ القلوب، ربما كان أعظمَ لوقعِه وأكبر لنفعه، فارجِع إلى الحق ثابتًا، وثِق بوعد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

فقال: الحمدُ لله الذي أنقَذَنا بلُطفِه وحُسنِ عنايته من الهلاك، ومنَّ علينا بالسعادة والهدى، فنسألُ الله أن يتمَّ نعمته علينا بالثباتِ على دينه إنه جواد كريم.

فقال الناصحُ لأخيه لما رأى ما يسرُّه من رجوعِه إلى الحق: وأزيدُك يا أخي بيانًا أن هذه المظاهرَ التي نراها من الكفارِ قد نبهنا الله في كتابِه ألا نغترَّ بها، فلولا أنه تعالى قد عَلِمَ أنها من طرقِ الغرور ووسائلِ الخِداعِ لما نبَّهنا عليها وأرشدنا وحذَّرنا أن نغتر بها؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤] الآيات، فبيَّن لنا أن هذا الاغترارَ مصيدةٌ للجاهلين، وأن الله أرى عبادَه من وقائِعه وآياته في الأممِ الظالمة ما حصلَت به العبرةُ، وأن من بَنى أمره ومسالكَه على الاغترارِ

(١) يقيض: يُقدر ويهيئ.

بما متعوا به فإنه جاهلٌ أحمقُ مقلدٌ قاصرٌ ونظرُه قاصر، وأيضًا فقد أخبر تعالى في آياتٍ كثيرة أنه يستدرِجُهم فيما أعطاهم فيَغتَرُّون ويُغتَرُّ بهم، وهذا هو الواقِعُ منهم، وممن تعشَّق أحوالَهم، وأنه تعالى يُمهِلُهم ثم يَأخُذُهم أخذَ عَزيزٍ مقتدر، ولسنا نُنكِرُ أن الله أعطاهم أسبابًا عظيمةً تدرك بها المطالب، لكن هذه الأسبابَ إن لم تُبنَ على الحق والدين الحقِّ صارَ ضررُها أكثر من نفعها، هذا بالنظرِ إلى الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فليس لهم في الآخرة من نصيبٍ ولا خلاقٍ.

۞ القاعدةُ الثالثةُ: الإيمانُ بالله هو الأصلُ الذي دَعَت إليه جميعُ الرسلِ، وبه الرقي الحقيقيُّ في الدنيا والآخرةِ.

جميعُ الكتب التي أنزَلَها الله، وجميعُ الرسلِ التي أرسَلَها[1] الله، الأصلُ الذي استَنَدَت[2] إليه، والدعوةُ التي دعت إليها هو الإيمانُ بالله، والإيمان بوجودِه وإيجاده المخلوقات، والإيمانُ بما له من الأسماءِ الحسنى وصفاتِ الكمال والإذعان الكاملِ لعبوديته والافتقارِ إليه.

القرآن العظيمُ الذي هو أجلُّ الكتب وأعظمُها، والمهيمن عليها، حثَّ على هذا الأصل بالطرق كلِّها؛ ففيه من أسماءِ الله الحسنى أكثر من ثمانين اسمًا معرفتُها ومعرفة معانيها تملأُ القلوب إيمانًا ونورًا ويقينًا وعلمًا وعرفانًا، هو أفضل ما حَصَّلته القلوب، وأرقى الاعتقادات النافعة، قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ

(١) في الأصل: وجميع رسول أرسله الله.

(٢) في الأصل: أسدت.

وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ ﴾ [الحديد: ١٩]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٨٢]، في مواضعَ كثيرةٍ، يرتَّب عليها خيرات الدنيا والآخرة، ويرتَّب على عدمِ الإيمان جميعُ الشرور الدنيوية والأخروية، ويخبرُ أن الأعمالَ والتعبدات كلَّها ناشئة عن الإيمان، فمن امتلأَ قلبُه من الإيمان بالله كانت قوةُ عبوديته لله بحسبِ ذلك الإيمان الذي في قلبِه، وكذلك أعمالُ الأسباب النافعة التي تنفع الأفرادَ والشعوبَ، لا يمكن العبد أن يقومَ بها على وجه الكمالِ والصدق والإخلاص والبناء على الأصولِ النافعة إلا بالإيمان.

فالإيمان أصلُ الخير الديني والدنيوي، وبه توزن الأمورُ صالحها وطالحها، وإذا أردت تفصيلَ هذه الجملِ العظيمة والتمثيلَ لها على وجه يعترفُ به أهل العقولِ والألباب، فالأمور التي يحصل بها الرقي الحقيقيُّ والسعادة والفلاحُ الاعتقادات الصحيحة والأخلاق المزكية للقلوبِ، المطهرة للأرواحِ، الباعثة للهمم والعزائمِ إلى كلِّ خيرٍ، والأعمال الصالحة النافعة في الدين والدنيا، وهذه الأمورُ متلازمةٌ لا يتم بعضُها إلا ببعضٍ وبتمامها السعادةُ والفلاح، فإذا اعتقدَ العبد ما أخبَرَت به الرسلُ عن الله تعالى، وأن له الكمالَ المطلق من جميع الوجوه بكلِّ وجه واعتبارٍ، وأن الأشياء؛ وجودَها وبقاءها وكمالها بالله تعالى، ومنه تستمدُّ كلَّ شيء، فعلم أن الله هو الخالقُ وحده، وما سواه مخلوقٌ، وهو الرازق المحسِنُ وما سواه مرزوق مضطرٌّ إلى إحسانِ ربه وكرمه من كلِّ وجهٍ، وهو المدبر المصرف للعالم العلويِّ والسفلي بحكمتِه وعلمه وعنايته وحسنِ تدبيره ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ يسمعُ الأصوات: ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

ويرى جميعَ ما حواه العالم العلوي والسفلي، لا يَخفى على نظرِه أدقُّ المخلوقات في أخفى الأمكنة، وهو مع ذلك واسعُ الرحمة والجودِ والكرم والبرِّ والامتنان، يُفيضُ الإحسان على مخلوقاته آناءَ الليل والنهارِ، يده بالخير سَحَّاءُ[1] الليلَ والنهارَ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، وموصلٌ إليها من بِرِّه وإحسانه وجميعِ ما تحتاجه في وجودِها وبقائها وتمام أحوالها.

وهو مع ذلك قد أمرَ المخلوقات أن تُنيبَ إليه، وتسألَه حاجَتَها، وتفزَعُ إليه في جميعِ مهماتها وملماتها، فيجيبُ الداعين، ويكشفُ كربات المكروبين، ويُزيلُ الضرَّ عن المضطرين، ويسوقُ الألطافَ وأصنافَ البرِّ لعباده المنيبين، فمتى اعتقدت القلوب هذه الاعتقادات الصحيحة في ربها وإلهها فلا بُدَّ أن تنيبَ إليه بالخوفِ والرجاء والمحبة وتمتلئَ من تعظيمه والإيمان به وتطلبَ السعي في كلِّ أمر يُرضيه وتتجنبَ كلَّ أمر يُسخطه فيضطرها هذا الأمرُ إلى الإخلاص الذي هو روحُ الأعمال، فالمخلصُ لله تنبني أعمالُه الظاهرةُ والباطنة على أن يكون الداعي لها والباعِثُ عليها هو الإيمانَ بالله، وغايتها الذي[2] تنتهي إليه وتَسعى إليه طلبِ رضاه والتنعم بثوابِه وخيراته، وبذلك يَزولُ عن القلوب جميعُ الأخلاق الرذيلة؛ من الرياءِ والنفاق والعُجبِ ومساوي الأخلاقِ، وتتحلى بالأخلاق الجميلة؛ من الحبِّ والإخلاص والطمعِ في فضل الله، والخوفِ من عقابِه، والصدق الكاملِ في طلب مرضاته والإنابة التامةِ إلى ربها في رغباتِها ورهباتِها؛ لأنها تعلم أنه لا ملجأَ ولا مَنجَى ولا مولَى ولا نَصيرَ إلا ربُّها ومليكها.

---

(١) سحاء: دائمة الصب والعطاء.

(٢) كذا في الأصل.

ويكون محبَّتها للخير الذي يُقرِّبها إلى مولاها مقدمة على كل محبةٍ، وترى أن قُوْتَها وغذاءَها وكمالها بهذه الإنابةِ وهذا الافتقار، وتعطفُ بهذا التعبد على عبادِ الله؛ فتحب للمسلمين ما تحب لنَفسِها من الخير، وتسعى لذلك بحسبِ مقدورها، ثم إذا أصابَتها النكباتُ، وحلَّت بها المصيبات فزِعَت إلى ربها؛ ليكشِفَ ضرَّها ويثيبَها على ما قَدَّرَ عليها، وتطمعَ غاية الطمع في فضلِ ربها، ورجاء رحمته، وطلبِ ثوابه، وبهذا المعنى الذي تتصف به وهذه العقيدة النافعة تهون عليها المصيبات وتخفُّ عنها المكروهات لما تعلمُه من حكمةِ الله واستناد الأمورِ إلى تدبيره وقُدرتِه؛ ولما تَرجوهُ من تَفريجِ كربها؛ لأنها تعلم أنه لا يفرجُ الكربات ولا يُزيل الشدات إلا هو؛ ولما ترجوه من الثوابِ الذي رتبه على المكارِه والصبرِ عليها.

وأما من لم يحصل له هذا الإيمانُ فإنه عند المصائب والملمات يَجري له من الآلام القلبية، والفظائعِ الروحية، والزلات العظيمة ما لا يمكن التعبيرُ عنه، وربما أن بعضَ هؤلاء تصل بهم الحال إلى إتلافِ نفسه، أو إلى زوالِ عقله لعدم ما يستندُ إليه ويرجوه، وكما أن المؤمن الحقيقيَّ يتلقى المكاره والمصيباتِ بالصبر والقوةِ والطمأنينة، للأسباب التي أشرنا إليها، فإنه يتلقَّى أوامرَ ربه بالقوة والعزيمةِ الصادقة، ويؤدي حقوقَه وحقوقَ خلقه بالكمالِ والتمام بحسب استطاعتِه، ومع ذلك فإنه يعلمُ أنه لا يمكنه أن تتم له العبودية وأداء الحقوقِ الواجبة والمستحبةِ والمصالح الكلية والجزئية إلا بالسعي بالأسبابِ الدنيوية النافعةِ وبالقيام بالقوة المعنويةِ والمادية فانبعثت همته لداعي الإيمانِ وداعي العقلِ وداعي الفطرةِ إلى ذلك وأبدى ما يقدرُ عليه في تحصيلِ ذلك، وعلم أن المقاصدَ لا تتم إلا بالوسائلِ، وأن الوسائلَ التي تتعين على المصالحِ مما أمر الله به ومما رتَّب عليه الثوابَ، وعلى الاستهانة به العقابَ، فدخل في هذا جميعُ الأسباب الموجودةِ والتي ستحدثُ بعد

ذلك؛ فعلم بذلك أن الإيمانَ المذكور هو الباعثُ على تحصيلِ خير الدنيا والآخرة، وأن من لا يرجو ثوابًا من الله ولا يخشى منه عقابًا ولا له إيمانٌ يستند إليه أنه ضعيفُ الهمةِ ضعيف العزمِ النافعِ، وإنما عزماتُه في تَحصيلِ لَذَّاتِه البهيمية وشهواتِه السفلية وطمعِه الدنيء، فربما كانت قوتُه في هذه الأمورِ وأسبابه المادية في تَحصيلِها فوق ما يتصوَّرُه المتصور ويُعبِّر عنه المتكلِّمُ، ولكن لا إيمانَ يستنِدُ إليه، ولا غاية حميدة يرتجيها، ولا حياة أبديةً يعمل لها، فمن كانت هذه حالَه لم ينل في هذه الحياةِ طَيِّبَها، ولا نجحَ في تحصيلِ سعادتها بقطع النظر عن الحياة الأخرى فإنه ليس له في الآخرة من خلاقٍ ولا نصيبٍ.

وبهذا يتضحُ لنا ما عليه المعرضون الآن عن الإيمانِ بالله، وأن هذه المناظرَ وما مُتعوا به من الحياة ما هي إلا لذاتٌ مؤقتة تحتها ما شئتَ من الآلام والأكدارِ، وأنه لا غايةَ لها وأن المؤمنين بالله مهما تقلبت بهم الأحوالُ وتطورت بهم الأمورُ فإنهم خيرٌ من هؤلاء وأحسنُ عاقبة، فلو وُفِّق المؤمنون للقيامِ الكامل بالإيمان على الوصفِ الذي ذكرنا لحازوا الحياة الطيبة في هذه الدنيا التي هي أطيبُ منها في دارِ القرارِ.

وأزيدك أيضًا أن الإيمان الذي وصَفنا هو الذي يحثُّ صاحبه على كلِّ خُلقٍ جميلٍ، ويزجره عن كل خلق رذيلٍ، فالإيمان يدعو صاحبَه إلى الصدق في الأقوالِ والصدقِ في معاملتِه الخلق، فمن لم يكن مؤمنًا هذا الإيمانَ لم تكن مطمئنًّا من أقواله ولا من معاملاته، وربما راعاك في شيء وكذلك في أشياء، وهو[1] الذي يحثُّ على النصحِ لله ورسولِه وكتابه وأئمة المسلمين وعامَّتِهم، فإيمان العبدِ يوجب أن يبذُلَ في هذه الأمور كل ما يستطيعه من النصحِ ويقدر عليه، ومن لم يكن كذلك فأنت غيرُ

(١) أي: الإيمان.

آمن من غِشِّه إن نصحَك فيما يظهر ويبين، فما الذي يمنعُه أن يغشَّك فيما يظن أنه لا يبين، ليس معه من الإيمان ما يعصِمُه من هذا الخُلقِ الرذيل.

الإيمان المذكور يحمل صاحبَه على الصبر والقوة والشجاعةِ والإقدام في المواضعِ التي يُحجِم عنها ضعفاءُ النفوس الذين لا إيمان معهم؛ فالمؤمن لقوة إيمانه وتوكُّله على الله ورجائِه لثوابِه وعلمه أن الثواب الديني والدنيوي والأخروي يكون بحسبِ ما قام به من واجبات الإيمان ومكمِّلاته، وما قام به من الجهادِ ويسهلُ عليه القيام بالأعمال الشاقة ويهون عليه وما يلقى من الأهوالِ والمعارضات ولا يأخذهم في ذلك لومُ اللائمين، وقدحُ القادحين، ولا يصعُب عليه ما أصابه من جرَّاءِ ذلك من المصائب، وكلما قوي الإيمان كان قيامه بهذه الأمور أعظم وأتمَّ.

أما من لم يكن معه ذلك الإيمان الصحيحُ فمِن أين له الثباتُ على الصبر وعلى المقاومات الشاقةِ، نعم، قد يكون له صبرٌ بعضَ الأوقات في تحصيلِ أغراضِه السفلية وشهواتِه النفسية، وقد يكون عنده من الشجاعةِ والقوة في تحصيل ذلك، ولكن حاله ما أرذلها وأخطَرَها وأقلها بقاءً! فإن الوسائلَ تابعة لمقاصِدِها، فأين من كانت مقاصدُه أجلَّ المقاصدِ؛ نَصرَ الدينِ، وإعانة المؤمنين، وقَمعَ أعداءِ الدين، ومقاومةَ الباطل، وتحصيلَ الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية، والقيامَ بحقوقِ الله كلِّيِّها وجزئيها؟! أين هذا ممن نهايتُه إدراك رئاسةٍ مؤقتة، ولذات فانية، مشوبةٍ بالأكدارِ، وكان عاقبتها الهلاك والبوار؟! فوالله إن بين حاليها لكما بين المشارق والمغارب.

الإيمان المذكورُ يحمل صاحبَه على العَدلِ، وينهاه عن الظُّلمِ؛ فإنه يعلمُ أن إيمانه لا يتحقَّقُ إلا بذلك.

وأما من عدمَ الإيمان، فأين العَدلُ الذي يتأسس عليه، فما تأسس العدلُ إلا بالإيمان بالله، واتباع الرسل والكتب السماوية، وإلَّا فطبيعةُ الإنسان الظلمُ

والفوضوية، لا في جماعاتِهم ولا في أفرادِهم، وأما ما لم يتأسَّس على العدلِ، فليس من الدين.

وكيف تأمنُ من لا إيمان له أن يظلِمَك في دمِك ومالك، فإن النفوسَ مجبولةٌ على محبةِ الأثرة إن لم يكن معها إيمانٌ يردَعُها وعلمٌ صحيح، وعدل يحجرها.

والإيمان الموصوفُ بما ذكرنا كما أنه يدعو أهله إلى الأخلاقِ الحميدة، وينهاهُم عن الأخلاقِ الرذيلة، ويحثُّهم على الآداب الحسنةِ، فكذلك يحثُّهم [ ] الدينية، والحقيقة الإسلامية عليه من فنون الصناعاتِ وأنواعِ المخترعات الحديثة، واستعداد للأعداء بجميع الوسائل النافعة على حسب الحالِ المقتضية، وإلى الكسلِ والضعفِ، وأن يكونوا كَلًّا على غيرهم[1].

كذلك يحثُّهم على ما تَقتَضيه المصلحةُ، وعلى جمعِ كلمة المسلمين واتفاقهم على كلمة سواءٍ[2]، فالمؤمنون بالمعنى الحقيقي يَقومون بهذه الأمورِ لداعي الدين إذا قام غيرُهم فيها للأمرِ الثاني فقط، ولكن لمصلحةَ دنيوية أن يسبقهم هؤلاء القومُ في تحصيلِ الفنون العصرية التي فيها المقاومة والاقتدارُ على المهاجمة، وعند المسلمين من الدواعي وطلبِ المصلحة ما ليس عند غيرِهم، واللومُ موجه إلى المؤمنين، فليس لهم عذرٌ عند الله، ولا عند خلقِه، ولا تعذُرُهم نفوسُهم الأبية ولا أخلاقُهم وتعاليمهم الدينية الإيمانية إذا كان الإيمان الحقيقيُّ يدعو إلى هذه الفضائلِ، ويزجر عن جميعِ الرذائل اتضح أنه الطريقُ الوحيد والصراط الأقوم للسعادةِ الحقيقية والرقي الحقيقيِّ، وأن ما نراهُ في بعض الأممِ الفاقدة للإيمان ليس إلا كالسرابِ حتى إذا

---

(١) هذه الفقرة فيها اضطراب في الأصل.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

جاءهُ المنصِفُ وحقَّقَ أمره لم يجدهُ شيئًا، حتى قال بعضُ منصِفيهم في هذا المقامِ: إن الناس كانوا ولا يزالون يَطلبون الحقَّ، ولم يكونوا في زمانٍ أبعدَ عنه في هذا الزمانِ، يريد بذلك قومَه؛ فما هم عليه من مظاهِرِ السعادة الدنيوية فإنَّ حَشوَهُ الآلام الشاغلةُ لقلوبهم أجمعين ما يرحمهم لأجلِه المقصرون عنهم، ويُزَهِّد الراغبين في مثلها لهم، ويصدهم عن اتباعهم، والسبب بُعدُهم عن الإيمان والحق، ونزوعُ أنفسهم إلى الباطلِ، وهرولتهم خلف دواعي الشهوة.

والسبب الأصلي في ذلك كله خلو نُفوسِهم من الركون إلى الإِله الواحِدِ خالق الجميعِ ورازق الأحياء ومقدِّرِ الأسباب لمكاسِبِهم، فهذه الأحوالُ والظواهر التي لم تُبنَ على الإيمان هل يقولُ صحيحُ العقل: إنها حياة سعيدة. والقلوب قلقة والنفوس محترقة، وإنما الراحة والحياة الطيبةُ راحة المؤمنين الذين اكتسبوا راحةَ الضمائرِ وطمأنينة السرائرِ، والرضا الحقيقي مع السعي الجميلِ في طلب المنافع والمكاسب، فالمؤمنُ حيث تجدُه تجدُ هذا الوصفَ مُنطبِقًا عليه؛ فهو سعيدٌ وإن كان بين الأشقياءِ، حكيمٌ وإن وجد بين السفهاءِ، وأما من أخذ اسم الإيمانِ رسمًا ولم يتحقق به عقدًا ولا خلقًا ولا أدبًا فلم تُضمَن له الحياة الطيبة.

❁ القاعدةُ الرابعةُ: الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ والتواصي بالحقِّ والتواصي بالصبرِ.

كم في كتابِ الله وسنة رسوله من الأمرِ بهذا الأصلِ العظيم والقاعدةِ العامة الجامعة لكل خيرٍ، فإن المعروف اسم جامعٌ لكل ما عُرف حُسنُه شرعًا وعقلًا، والمنكر اسم جامع لكل ما عُرفَ قُبحُه شرعًا وعقلًا، والحق هو العلوم النافعةُ والأعمال الصالحة فيدخل في هذا تعلم جميع العلومِ النافعة وتعليمها، وكما يدخُل في ذلك تعليم المستعدين لطلبِ العلم، فإنه يدخل فيه تعليمِ الناس ووعظِهم في

المساجدِ والمجامع الصغارِ والكبار، وفي الحديث مع الأصحابِ وغيرهم، وكذلك يتعين أن يكون هيئاتٌ وجمعيات من المسلمين يدعون إلى الخيرِ، ويأمرونَ بالمعروف، وينهون عن المنكرِ.

ومن أكبر المعروفِ أن يسعوا في جمع كلمةِ المسلمين، واتفاقِهم على مصالحهم الكلية، وإزالةِ ما يقع بين المسلمين من التعادي والتباغضِ والتنافرِ التي هي من أكبرِ الأسباب الممكنة للأعداءِ، وأن يكون من المسلمين طائفةٌ كافية مستعدة للجهادِ بالإقبال على تعلمِ العلوم والفنون العصريةِ والصناعات والأسلحة التي لا يقومُ الجهاد إلا بها، فإن الجهادَ في سبيل الله من أكبرِ ما يدخل في الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ.

والجهادُ نوعان: جهادٌ واجتهاد في تقوية المسلمين بالروحِ الإيمانية والقوة المعنوية والشجاعةِ الدينية، وجهادُ الأعداء في مدافعتِهم ومهاجمتهم وأخذُ الاحتياطاتِ الكافية لوقاية شرهم وضررِهم، ومعلوم أن هذه الأمورَ تتوقف على الحذقِ[1] والمهارةُ في الفنون العصريةِ النافعة، فيكون السعيُ فيها وفي تعلمها داخلًا في الجهادِ وطريقًا عظيمًا من طرقه، ومن ذلك أن يكون طائفةٌ من المسلمين تتفقَّدُ الناس وتُلزِمُهم القيامَ بالفرائض الدينية؛ كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميعِ حقوق الله وحقوقِ خلقه الواجبة، وتَردَعُهم عن المنكرات الظاهرةِ والباطنة.

ومن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ والتواصي بالحقِّ أن يكون المسلمون في كل أوقاتِهم وأحوالهم مُتناصِحين؛ يحثُّ بعضهم بعضًا على الحقِّ الذي هو العلمُ النافع والعمل الصالح والصبرُ على ذلك، فإن الصبرَ هو الآلة والأساسُ الذي لا ثبوت للأمورِ إلا به.

---

(١) الحذق: الإتقان.

ومِن ذلك السعيُ في المشاريعِ الخيريةِ التي تنفعُ الأمةَ، وتحصيلُ الأموالِ لقيامها وتقويمِها؛ كالمدارس العلمية في جميع فنونِ العلم النافعِ في الدين والدنيا المعينة على الدين، سواء كان ذلك سعيًا على طريقِ الإحسان المحضِ أو على طريقِ التجارة والكسب، فكثيرٌ من الأعمال الكبيرةِ التي تنفع الناسَ في دينهم ودنياهم لا تقومُ إلا بالشركات الواسعةِ، فإذا كان الناس يَسعونَ للمساهمة في الشركاتِ التجارية المحضةِ فكيف يتأخرون عن الشركات الجامعةِ للأمرين: للمصلحةِ الدينية والمصلحةِ الدنيوية، بل نفسُ السعي فيها والعملُ لها من أعظم ما يُقَرِّب إلى الله تعالى، وتعيينها يتوقف على المشاورةِ واتباع المصلحةِ الراجحة.

ومِن أجَلِّ وأفضلِ ما يدخلُ في ذلك مُجادلةُ المبطلين، وإقامةُ الحجج والبراهين على أعداءِ الدين من الكفارِ والملحدين، وقد يكون مُقاومةُ الملحدين الذين يتَسَمَّون باسم الإسلامِ، ويدعون إلى نبذِ أصولِه ودعائمه أفضلَ من التصدي للمبارِزين من الأجانِبِ المعروفين بمبارزةِ الدين؛ فإن هؤلاء شرُّهم أعظمُ وضررهم أكبرُ؛ لاغترارِ كثيرٍ من الناس بانتسابهم إلى الإسلامِ، وهم في الحقيقة من أكبرِ أعدائه، وهؤلاء قد يكونون أُجراءَ للأجانب، وقد يكونون مخدوعين، لكن من أوجبِ الواجبات تمييزُ أحوالهم وإنكارُ ما أدخلوه على الدين من الدعايةِ الباطلة.

وبما تلوناه عليك من التقريرات اليَقينيةِ عن دين الإسلامِ يتضح عقلًا كما اتَّضَحَ شرعًا بطلانُ ما زعمه بعض المتعصبين من دعاةِ النصارى وأُجرائِهم أن دين الإسلامِ مانع من الرقي، وأن هذا الكلامَ والزعمَ الخبيثَ مكابرةٌ بينة، وأن الرقي الحقيقيَّ مُحالٌ وغير ممكن أن يتأسسَ على قواعد الدين، فالقواعِدُ والأصول التي نبَّهنا عليها عن الدين لا يمكن أحدًا أن ينكرَ أنها السببُ الأعظم والطريقُ الوحيد إلى الارتقاءِ في مدارجِ السعادة والفلاحِ، وأنه يتعذر النجاحُ بدونها وأن كلَّ رقي

بغيرِها فإنه مبني على شفا جُرفٍ هارٍ، وكيف يحصُلُ الرقي إذا لم ترتق القلوبُ والأرواحُ بمحبة الله والإنابة والافتقارِ إليه وقوة الإيمانِ والتوكل عليه؟ وكيف يحصُلُ الرقي التامُّ ولم ترتَقِ الأخلاق بالتحلي بالفضائلِ والتخلي عن جميع الرذائلِ، وكيف يتم الرقيُّ بغير الجهادِ الشرعي؛ الذي هو الجهادُ على تبيين الحق والهدى وعلى قبولِه وعلى دفعِ عاديةِ المعتدين.

الجهادُ الشرعي هو الذي جمع بين القوةِ المعنوية بالإيمانِ الكامل بالله والاعتمادِ عليه والتوكُّل والاستعانة به والعملِ بجميع الأسبابِ التي لا يتم الجهادُ إلا بها، وجمع القوة المادية؛ حيث حثَّ على الاستعدادِ بكل ما يُستطاعُ من القوة العقليةِ والسياسية والرميِ والركوب وتعلم الصناعات والفنون التي تُعينُ على الجهاد، وعلى أخذ الحذرِ من الأعداء بكل وسيلة وطريقٍ، فيا ويحَ من زَعمَ أن هذه التعاليم العظيمةَ العالية لا يَحصُلُ بها الرقي! وإنما يحصُلُ بالقوة المادية التي لا صلةَ لها بالدين، المبنية على القساوةِ والهمجية والوحشيةِ والظلم ونَبذِ الدين، ولكن أكثرَ الناس تَغُرُّهم المظاهرُ والصور وليس لهم ألبابٌ ينظرون بها إلى حقائقِ الأشياء وإلى الأمورِ النافعة التي نتائجُها الخيرات والسعادة الأبديةُ.

۞ القاعدةُ الخامسةُ: الدين الإسلاميُّ هو الصلاحُ المطلَقُ ولا سبيلَ إلى صَلاحِ البشرِ الصلاحَ الحقيقيَّ إلا بالدينِ الإسلاميّ.

قال تعالى في عدة آيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧، يونس: ٩]، ثم يُرتَّب على ذلك خيرُ الدنيا والآخرة ويطلق الصالحات، فكل شيءٍ ينطبقُ عليه الصلاحُ فإنه داخلٌ في الصالحات ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، والله يتولى الصالحين، أيِ: الذين صَلَحَت قُلوبهم وأخلاقُهم وأعمالهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ

مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، وهذا يقولُه تعالى للمنافقين الذين يَزعمون أن ما هم عليه من النفاقِ وترك الإيمانِ صلاحٌ، فأخبر تعالى أنه هو عينُ الفسادِ، فكل من زَعمَ أن الصلاحَ في خلاف الدين الإسلاميِّ فهو من هؤلاء المنافقين وعلى شاكِلَتِهم.

وفي القرآنِ آيات كثيرة فيها الحثُّ على الصلاح والإصلاحِ، والتحذيرُ عن الفسادِ والإفساد، وهذا الأصلُ الكبير كما أنه ثابتٌ شرعًا ودينًا فإنه ثابت في العقولِ الصحيحة والألباب المستقيمةِ، وذلك بمعرفةِ ما هو الصلاحُ وضده.

أما الصلاحُ فأن تكون الأمورُ كلُّها ظاهرُها وباطنها دينيُّها ودنيويها معتدلةً كاملةً مكملة حاصلًا لها من الأوصافِ الصالحة والنعوتِ المصلحة ما يوصِّلها إلى الصلاحِ الحقيقي؛ وبذلك ينتفي عنها الفسادُ؛ أما صلاحُ القلوب فأن تكون عارفةً بالحق مُعترفةً به منقادةً له تابعة له، فأعظمُ الحقِّ على الإطلاقِ الذي يتعيَّن معرفتُه والانقيادُ له هو معرفةُ تفرُّدِ الربِّ بالكمال المطلَقِ الذي لا يشاركُهُ ولا يماثِلُه فيه مخلوقٌ بوجه من الوجوهِ، وأنه المتفردُ في عظمة صفاتِه، وتفرده في أفعالِه وعطائه ومنعِه وخفضِه ورفعه، وتصريفِه الأمورَ بحكمة وعناية تتناقصُ عقول العالمين عن بلوغِ غايتها ونهاية دقَّتها، ثم إذا عرفته هذه المعرفةَ الصحيحة المتلقاةَ عن كتابِ الله وسنة رسول الله اعترفت وانقادَت له محبةً وخوفًا ورجاء وإنابة إليه وقصدًا في جميع شئونِها الظاهرةِ والباطنة.

وبهذه المعرفةِ والاعترافِ والانقيادِ التام تنقادُ إلى أداء حقوقِه وحقوقِ عباده بانشراحِ وطمأنينة وإذعانٍ وداعي الإيمان ورجاء الثواب، أليس هذا هو الصلاحَ الحقيقي الذي لا يمكن صلاحُ الأحوالِ إلا به؟! فهل يمكن أن يَصلُحَ عبدٌ لم يُفرِدِ ربه بمعرفتِه ومحبته والإنابةِ إليه ولم يَنقَد في ظاهرِه وباطنه إلى القيامِ بعبوديته وحقوقِ

خلقه؟! فلو خَلَت القلوبُ من هذه المعاني الجليلةِ فهل يمكن أن تصلُحَ؟! وهل يمكن أن تَصلُح الحركاتُ الظاهرةُ والباطنة؟! هذا ممتنعٌ ومستحيلٌ، فالقلوب الخالية من الإيمان، المتجردةِ عن الانقيادِ والإذعانِ إليه، حيث انقطَعَت عن الله فلا بد أن تتبعَ شهواتِها وأهواءها؛ وبذلك تفسُدُ الأحوال كلُّها، وهذا برهان ظاهرٌ نَيِّرٌ على أن الصلاح في الدين والدنيا منوطٌ بالقيام بالدين الإسلامي.

وأيضًا فإن الناس مضطرون إلى الاجتماع، ومفتقرون إلى تبادُلِ المصالح، ولا بد لبعضِهم من بعضٍ، وشؤون بعضهم متعلقةٌ ببعض، ولا يشكُّ أحد من العقلاءِ أن مصالحَ البشر متعارضةٌ، ومطالبَهم متباينةٌ، والمصالح مختلفةٌ، والأهوية غالبة؛ فكان هذا أقوى البراهين على اضطرارِ الخلق إلى دين وشرعٍ سماوي معصومٍ يجدد لهم الحدودَ، ويشرع لهم الشرائعَ، وينهج لهم طريقَ العدلِ والإنصاف، ويمكن بعضَهم من الانتفاع ببعضٍ بطمأنينة وحياة طيبة، والشرعُ والدين الإسلامي كفيلٌ بذلك على الوجه الأكملِ والطريق الأقوم، ألا ترى حُسنَ ما شرعه من المعامَلاتِ في المعاوضاتِ كلِّها والتبرعاتِ، وما أوجبه من الحُقوقِ بين الناس على حسبِ ما تقضيه المصلحة والضرورةُ والظروف، وما فيه من قواعِدِ العدلِ التي لا غنَى للخلق كلِّهم عنها، وما فيه من الحدودِ والعقوبات للمجرمين بحسبِ جرائمهم؟!

فلو وُكِلَ الناس إلى عقولهم في هذه الأمورِ لصارت تبعًا للأهوية والأغراضِ، وحصلت الفوضى بحسب ما تُركَ من نظاماتِ الشريعة، وكل قاعدةٍ نافعة موجودةٍ عند الأجانب وكلُّ نظامٍ نافع عندهم فإنما أصلُه مأخوذ من الدين الإسلاميِّ، فليذكر لنا المنحرفون أصلًا نافعًا ومعاملةً نافعة وعملًا نافعًا خارجًا عن الدين الإسلاميِّ، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا، وكيف يجدون السبيلَ والذي أنزله وشرعَهُ للخلقِ وهو الربُّ الرحيم الذي وَسِعَت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وأحاط بكل شيءٍ، وعلم

أحوال الخلقِ؛ ماضيها ومستقبلها فلا يخفى عليه منها مثقالُ ذرةٍ، وأحكم ما شرعَهُ غاية الإحكام، كما أحكمَ ما قدَّره في أحسن نظامٍ، أليس من أجَلِّ طرقِ الصلاح الشكر عند النَّعماءِ والصبر عند المصائِب والضراء؟! الأمران اللذان لم يزل ولا يَزالُ الخلق في هذه الدنيا بينهما يتَقَلَّبون، ولا يمكن أن يَخْلُوَ منهما مخلوقٌ في وقت من الأوقاتِ ولا حالةٍ من الأحوالِ.

فسل الشاكَّ في اشتمال الدين الإسلاميِّ على غاية الصلاح؛ هل ما يَدعو إليه الدين الإسلاميُّ من مقابلة النعمِ والخيرات بالشكرِ، والثناء على موليها، والاستعانة بها على ما يُحبُّه ويرضاه في صرفِها في الوجوه النافعةِ، ومقابلة المكارِهِ والمصائبِ بالصبر والرضا عن الله والتسليمِ لأقدارِه؛ فيكون العبادُ عند النِّعمِ من الشاكرين وعند المكارِه من الصابرين، ويكسب الحياة الطيبةَ في الدنيا مع ما يدَّخِرُه الله له في الآخرة، أم مقابلةُ النِّعمِ بالأَشرِ والبطرِ والمكاره بالسخطِ والآلام القلبيةِ والزلازلِ الروحية، كما هو أمرٌ لازمٌ للمنحرفين، فالعاقل لا يشك أن الأمرين لا يَستَويان، وقل له: أيُّ الأمور خير؟ ما دعا إليه الدين من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] الذي به صلاحُ الأمور أم طريقةُ الإسراف والتبذير وطريقةُ البخل والتقتير[1]، وما دعا إليه الدين من الإحسانِ في عبادة الخالقِ وإيقاعِها على أحسن الوجوهِ وأكملِها، والإحسان إلى الخلقِ بكل وسائلِ الإحسان، أم ما يدعو إليه المنحرفون من الإعراضِ عن عبادة الله وحده، والإقبالِ التامِّ على شهوات النفوس الخسيسةِ، وجعلها هي مبلغ علمِ الإنسان، وكلُّ همه منعُ الإحسان إلى الخلق، بل مقابلةُ الإحسان بالإساءةِ؟!

(١) التقتير: التضييق في النفقة.

فلا بد أن يقولَ العقل الصحيحُ: هذا الأمر الجليُّ لا يحتاج إلى طلبِ ترجيحٍ.

وقل للشاك في حُسنِ الدين الإسلاميِّ: هل ما دعي إليه من وجوبِ بِرِّ الوالدين، وصلةِ الأرحام، وأداء حقوق الأصحابِ والجيران، والمعاملين بطريقةِ العدل والفضلِ خيرٌ أم طريق الأثرة والعُقوقِ والقطيعة والجَورِ في المعاملات؟

وقل له: الله قد وَهَبَنا عقولًا وقوى ظاهرةً وباطنة نتمكن بها من إدراك سعادتنا ودَفعِ شقاوَتِنا؛ فهل إذا استَعمَلنا ما وَهَبَنا ربُّنا من ذلك فيما خلقنا له من عبادةِ ربِّنا والقيامِ بحقوقه وحقوقِ عباده ورُضوخِ تلك المواهب والقوى لأحكامِ مَن أنعمَ بها ووهبها، والسلوك من ذلك الطريقِ المستقيم إلى ربِّنا، والاستعانة بما أعطانا من المنافعِ الدنيوية إلى صلاحِ ديننا ومصالحنا الكلية، أم الأَولى بنا أن نستعمل العقولَ والقوى في أمورٍ تافهة طفيفةٍ لا تغني عن صاحبها شيئًا إن لم يؤسسها ويبنها على الدين، ويجعلها تبعًا لشهواتِه ووقفًا على مراداته ولو أهلك وضَرَّ أخراه؟! الدين الصحيحُ يدعو إلى الأول، وطُرُقُ الانحرافِ تدعو إلى الثاني.

وقل له أيضًا: أيُّما أولى بالعبدِ أن يتبع ما دعا إليه الدينُ؛ من إخلاصِ الدين لله وحدَهُ، وتعليقِ الرغبات والرهباتِ بالله، وألا يرجو ولا يُطيعَ إلا بفضلِ الله وكرمِه أم تعليقُ ذلك بالمخلوقين، والذين لا يَملِكون لأنفُسِهم -فضلًا عن غيرِهم- نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

وقل له: إذا كان الربُّ هو الذي خلقنا ورزقنا وهدانا وعافانا وتفضلَ علينا بالنعم الظاهرة والباطنةِ، ألا يجب علينا أن يكون هو معبودَنا، وهو الذي نحمدُهُ ونشكره ونبذل له ما في وُسعِنا واجتهادنا؟! ومع ذلك فإننا لا نَبلغُ بذلك مقابلةَ أدنى نعمةٍ من نِعَمِه علينا، فهل يَليقُ بنا أن نَصرِف شيئًا من ذلك في شكرِ غيره وعبودية غيره؟ لا والله إن هذا أمرٌ يَستقبِحُه الشرعُ والعقلُ والفطرة.

وقُل للشاكِّ في تَعاليمِ الدين الراقيةِ: أليس الدين الإسلاميُّ يحث المسلمين أن يكونوا إخوةً متآلفين مُتَّفقين على دينِهم وعلى أصولِه وعلى جميعِ مصالحه ويُرَغِّبُهم في هذا الأصل غاية الترغيبِ ويذكُرُ لهم ثمراتِ ذلك العاجلة والآجلة، ويزجُرُهم أشدَّ الزجر عن كل ما ينافي ذلك من التباغُضِ والتدابُر والتقاطُعِ، ويجبرهم أن إصلاحِ ذات البين هو السبب والطريقُ لصلاحِ الأَحوالِ، كما أن فسادَ ذات البَيْنِ هو السبب في الأضرارِ الدينية والدنيوية، فهل يوجدُ طريقٌ لصلاح الأحوالِ الكلية غير هذا الطريقِ الذي يُرشِدُ إليه الدين بجَميعِ وجوهه؟!

وقُل للشاكِّ في كمالِ الدين إذا قال: نحن نَعتَرِفُ بما احتوى عليه الدين الإسلاميُّ من الإصلاحات الدينية والقلبيةِ أو الأخلاقية، وما احتوت عليه أحكامُه من العبادات والمعاملاتِ من الحسن الذي لا مَزيدَ عليه ولا يُمكِنُ أن تقتَرِحَ العقولُ أحكامًا مثل أحكامِه فضلًا عن كونها تقترحُ أعلى من أحكامِه، ولكن نشكُّ في احتوائه على المنافع الدنيوية وعلى الصناعات وعلى علومِ السياسة.

فأجبه قائلًا: أليس هذا قواعدَ وأصولًا من علم الاجتماعِ والسياسة لا يمكن أن يَخترِعَ المخترعون أحسنَ منها؟ أليس فيه الأمرُ بالمشاورة في جميعِ الأمور الداخلية والخارجيةِ؟ فما المقصود من المشاورةِ إلا النظرَ في المصالح والمضارِّ والخير والشر وتقديمِ ما تعينت مصلحتُه أو ترجَّحَت، واجتنابِ ما تعينت مَضرَّتُه أو ترجحت، فالسياسةُ الحكميةُ كلُّها ترجِعُ إلى الشورى في الأمورِ، ألم يقل الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]؟ أي: سخر لنا جميعَ ما في الأرض؛ لننتفعَ بغَرسِها وزرعها وحرثِها واستخراجِ معادنها والانتفاعِ بصناعاتها، وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فأطلقَ المنافع فشمِلَت المنافع الدينية والمنافعَ الدنيوية

خصوصًا منافع الأسلحةِ المتنوعة التي تجري مع الزمانِ والأحوال والصناعات التي ينتفعُ بها الناس في كل شيءٍ، ألم يقل الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟ فهذا يدخل فيه كل قوةٍ عقليةٍ وسياسيةٍ وتعلم الفنونِ الحربية والركوبِ والرمي وتوابعِ ذلك، وكذلك أَمَرَ بأخذ الحذرِ من الأعداء، وذلك بالتخلُّصِ والتحصُّنِ والتحرز[1] منهم بكل وسيلةٍ تحصل بها الوقاية والتحرزُ، وكم في كتاب الله وسنةِ رسولِه من الأمر بالجهادِ ومقاومة الأعداء فيدخل في ذلك كل وسيلةٍ تعينُ على الجهاد في سبيل الله؛ فعلم بذلك أن الدين الإسلاميَّ قد احتوى على جميعِ المصالح والخيرات العاجلةِ والآجلة والنفع الكلي والجزئيِّ والديني والدنيوي، فهذه كلماتٌ كُلياتٌ يُعرَفُ تحقيقُها بتتبع الأنواعِ والأجناس والأفراد وتحقيق الأمرِ فيها، وهذا من أكبرِ الآيات والبراهين أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومما يدلُّ على عظمةِ هذا الدين؛ أن الله أباحَ جميع الطيبات من المآكلِ والمشارب والملابس والمناظِرِ والمناكِحِ والتمتُّعات، وحرَّم كل خبيثٍ من هذه الأمور ضارٍّ لصاحبه وللمصلحة العمومية، وأنه ما أمرَ بشيءٍ فقال العقلُ الصحيحُ الحرُّ: ليته نهى عنه. ولا نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته أمرَ به. ولا أخبر بما تُحيله العقولُ، بل إخباره نوعان:

نوع تَشهدُ العقولُ بصحته وكمالِه وفضله، ونوعٌ لا تهتدي إليه ولا تعرِفُه؛ لعدم وصولها إليه؛ لكونه من عالمِ الغيب الذي لم تشاهدهُ ولا شاهدَتْ نظيرَهُ، وهذا النوعُ قد أرى الله عبادَه في الآفاقِ وفي أنفسِهم من الآيات ما يدلُّ على صِدقِ ما أخبرت به الرسل، ونطقَت به الكتبُ السماوية.

---

(١) التحرز: التحفظ والتوقي.

ومن نَظَرَ وأمعَنَ[1] النظرَ في هذه الأصولِ التي تلوناها ونبَّهنا عليها تنبيهًا مختصرًا علم علمًا يقينيًّا أن الدين الإسلاميَّ هو الدين الحقُّ في علومِه وعقائِده وأخلاقِه وأعماله وسياستِه وحسن معاملتِه للخلق، وإحسانه إلى المُوافِقِ والمخالفِ، وأنه يدعو إلى سبيلِ الحقِّ بالحكمة التي هي سلوك الطرق والوسائلِ القولية والفعلية التي يُستعانُ بها على الدعايةِ إلى سبيلِ الله الذي هو الصراطُ المستقيم، وأنه يأمر باللين وعدم المخاشنة في مخاطبةِ المحاربين للدين، فكيف بذلك مع المؤمنين؟ فيقولُ لرسولِه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، ثمَّ انظر إلى ما يخاطِبُ الله به أعداءه الكفارَ وتُخاطبُهم الرسلُ فإنه الطريقُ الأقوم لهذا الطريقِ والدعاية إلى الخيرِ، وبه يحصلُ من المنافع ودفعِ المضارِّ ما لا يحصل بالمخاشنةِ والمشاتمة؛ فإنها طريقةُ الجاهلية الحمقى وإن حسُنَت مقاصِدُهم، فقد ساءت طرائِقُهم.

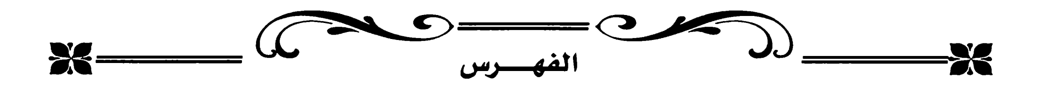
وهذا آخرُ ما يسَّر الله من هذه الرسالةِ الأصولية المحتويةِ على قواعدَ وأصولٍ مختصرة جامعةٍ، ونسأله تعالى أن يُثبِّتنا على دينه وصراطِه المستقيم إنه جواد كريم، وصلى الله وسلَّم على عبدِه ورسولِه سيِّدنا محمدٍ وآله وصَحبِه أجمعين.

قال ذلك وكتبَه الفقيرُ إلى الله تعالى عبدُ الرحمن بنُ ناصرِ بن سعدي غفر الله له ولوالِدَيه وجميعِ المسلمين، ونقَلتُه من خطِّ شيخِنا المكرم متَّع الله لنا بحياتِه، وأنا الفقيرُ إلى ربِّ البريات عبدُه وابن عبدِه، عبدُ العزيزِ بن صالحِ بن دامغ، وذلك بغايةٍ من العجلةِ.

حُرِّر في ١ جمادى الثانية سنة ١٣٦٦هـ.

---

(١) أمعن: دقق.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الرسالة الأولى

سؤال وجواب في أهم المهمات

الرسالة الثانية

مختصر في أصول العقائد الدينية

الرسالة الثالثة

أصول عظيمة

من قواعد الإسلام